مقامات التعبير
بمادة "لبث"
في القرآن الكريم
وأسرارها البلاغية

إعداد
د/ عبدالله محمد سليمان حسيني
مدرس البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية بالزقازيق جامعة الأزهر

مقامات التعبير بمادة (لبث) في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية

عبد الله محمد سليمان حسيني
مدرس البلاغة والنقد كلية اللغة العربية بالزقازيق جامعة الأزهر- جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني: drabdalla105@gmail.com

ملخص البحث: اتفقت كلمة العلماء على أن المفردة القرآنية غنية في إيحاءاتها، فياضة في عطاءاتها ودلالاتها؛ ولا عجب في ذلك، فالقرآن كلام الله الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يفنى زاده، ولا يغيض معينه، ومن هذه المفردات – التي وقفت معها بالتأمل كثيرا– لفظة "لبث" وما تفرع عنها من مشتقاتها، فقد وردت في كتاب الله – تعالى– في كثير من المواضع، حتى بلغت زهاء واحدٍ وثلاثين موضعًا، وترتب على هذه الكثرة أن تنوعت صيغها، كما جاءت في سياقات متنوعة، ومقامات مختلفة، وذلك على النحو الذي وسعته هذه الدراسة، تفصيلا وتحليلا. وقد كان لهذا وذاك أثر كبير في تنوع دلالات هذه اللفظة، وكثرة فيوضاتها، وذلك على نحو ينطق بثراء المفردة القرآنية، وسعة عطائها، وعمق إيحائها، على أن صيغة الماضي التي تزيَّت بها تلك المادة هي "لبث"، ولم ترد صيغة "تلبثوا" إلا في موضع واحد في سورة الأحزاب، وتبين أن هذه الصيغة هي الأوفق بمقام التكذيب لدلالتها على الترقب والانتظار،وجاءت صيغة "لبث" في تركيب جملة القصر بالنفي والاستثناء كثيرا؛ لتناسقها مع سياق الحديث الذي جاء في خطاب منكري البعث غالبا، وتلك سياقات تقتضي تأكيدا زائدا؛ وهو ما يجعل طريق القصر بالنفي والاستثناء أكثر مواءمة لها.

الكلمات المفتاحية: التعبير، مقامات، لبث، القرآن، الأسرار، البلاغية.

The Expression Contexts of the Term (labitha) in the Holy Qur'an and its Rhetorical Secrets

Abdullah Muhammad Suleiman Hosseini
Lecturer of rhetoric and criticism, Faculty of Arabic Language, Zagazig, Al-Azhar University.
Email: drabdalla105@gmail.com

Abstract: It is no wonder in that the Qur'an is the word of Allah. Its miracles do not cease, its eloquence is not exhausted, and its textual beauty and perfection are limitless. The scholars agreed that the Qur'anic vocabulary is rich in its suggestions as it overflows with its tendencies and connotations. One of these vocabularies, which I pondered a lot about its meaning, is the word "labitha" and its derivatives stemming from it. It was mentioned in many places in the Quran, as it occurred nearly thirty-one times in different places. As a result of such numerous occurrences of the term, its meanings varied, and it occurred in a variety of contexts and different places, as it is examined in this study, in detail. This had a great impact on the diversity of the connotations of this word, and the abundance of its overflowing, in a manner that shows the richness of the Qur'anic term, the breadth of its significance and the depth of its revelation. However, the past tense with which this term was employed is "labitha". The wording of "talabbathou" [stay or wait] was mentioned only in one place in Surat al-Ahzab [The Confederates]. It turned out that this term is the most appropriate form of denial, indicating anticipation and waiting. The term "labitha" occurred frequently in the synthesis of the Qasr sentences [The Exception] in negation and exclusion, because it is consistent with the context that often came in the speech of the Baath [resurrection] deniers, and these are contexts that require excessive confirmation. This makes the use of the Qasr style by negation and exclusion more compatible with it.

Key words: expression, maqamat, broadcast, Quran, secrets, rhetoric.

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على البشير النذير محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان..

وبعد،،،

فالمفردة القرآنية غنية في إيحاءاتها، فياضة في عطاءاتها ودلالاتها؛ ولا عجب في ذلك، فالقرآن كلام الله الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يفنى زاده، ولا يغيض معينه.

ومن هذه المفردات – التي وقفت معها بالتأمل كثيرًا– لفظة "لبث" وما تفرع عنها من مشتقاتها، فقد وردت في كتاب الله – تعالى– في كثير من المواضع، حتى بلغت زهاء واحد وثلاثين موضعًا.

وترتب على هذه الكثرة أن تنوعت صيغها، فجاءت بصيغة الماضي كثيرًا، من نحو ستة وعشرين موضعًا، وجاءت بصيغة المضارع قليلًا في أربعة مواضع، وجاءت بصيغة الاسم نادرًا، وذلك في موضع واحد.

كما جاءت في سياقات متنوعة، ومقامات مختلفة، وذلك على النحو الذي سوف تسعه خطة الدراسة ومحاور البحث، تفصيلًا وتحليلًا.

وقد كان لهذا وذاك أثر كبير في تنوع دلالات هذه اللفظة، وكثرة فيوضاتها، وذلك على نحو ينطق بثراء المفردة القرآنية، وسعة عطائها، وعمق إيحائها، وهذا ما حدا بي إلى اختيار هذا الموضوع الذي جاء بعنوان "مقامات التعبير بمادة (لبث) في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية"؛ للوقوف مع هذه اللفظة في سياقاتها ومقاماتها؛ لاستكناه أسرارها ونكاتها، واستخراج مكنون دررها وجواهرها، وبيان مدى مواءمتها – في سياقاتها– للمعنى والغرض، ووفائها لحاجة الموقف والمقام.

واقتضت طبيعة هذا البحث أن يخرج في: مقدمة، وتمهيد، ومحورين، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة: تحدثت فيها عن أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والخطة التي سرت عليها، والمنهج المتبع في الدراسة.

التمهيد: تناولت فيه دلالات مادة "لبث" في المعاجم العربية.

المحور الأول: مقامات التعبير بمادة "لبث" في سياق القصص القرآني.

واشتمل هذا المحور على اثني عشر مقامًا:

أولها: مقام معاينة إحياء الموتى واستعظام قدرة المحي.

ثانيها: مقام الرد على المكذبين المنكرين أن القرآن من عند الله.

ثالثها: مقام تصوير إكرام إبراهيم – عليه السلام– لضيفانه.

رابعها: مقام تعيين مدة لبث يوسف – عليه السلام– في السجن.

خامسها: مقام تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتسليته.

سادسها: مقام بيان أي الحزبين المتنازعين – في مدة لبث أصحاب الكهف– أتقن إحصاءً.

سابعها: مقام تصوير تنازع أصحاب الكهف في مدة لبثهم.

ثامنها: مقام بيان مقدار المدة التي لبثها أهل الكهف في كهفهم.

تاسعها: مقام تذكير موسى – عليه السلام– بنعم الله عليه.

عاشرها: مقام امتنان فرعون وتفضله على موسى بتربيته إياه.

حادي عشر: مقام تكذيب المنافقين.

ثاني عشر: مقام نفي علم الغيب عن الجن.

المحور الثاني: مقامات التعبير بمادة "لبث" في سياق الحديث عن البعث وأهواله.

واشتمل هذا المحور على سبعة مقامات:

أولها: مقام تصوير بعض أهوال القيامة وشدائدها.

ثانيها: مقام تصوير انقياد الناس للداعي يوم القيامة.

ثالثها: مقام تحسير الكافرين وتنديمهم.

رابعها: مقام تصوير حال المجرمين حين تقوم الساعة.

خامسها: مقام إبطال دعوى المشركين وردها.

سادسها: مقام تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتصبيره.

سابعها: مقام تهديد الطغاة ووعيدهم.

الخاتمة: أودعتها أهم النتائج التي توصل البحث إليها.

فهرس المصادر والمراجع وآخر للموضوعات.

وأما عن المنهج الذي ائتممت بهديه واقتست به؛ فهو المنهج الاستقرائي التحليلي، الذي يقوم على حصر مقامات هذه المادة، ثم تبويبها وتصنيفها على حسب محاور الدراسة، ثم تحليلها تحليلًا بلاغيًا يقوم على استكناه أسرارها، واستبطان أبوابها، ومحاولة الكشف عن أسباب اصطفائها، بإيثارها في مقام ما، دون غيرها.

والله أسأل التوفيق والسداد؛ إنه أكرم مسؤول، وأعظم مأمول.

د. عبد الله محمد سليمان

التمهيد

دلالات مادة "لبث" في المعاجم العربية:

يدور معنى "اللبث" في المعاجم حول المكث في المكان والإقامة فيه – ملازمًا له– إقامة طويلة كانت أو قصيرة.

يقول أحمد بن فارس: "اللام والباء والثاء حرف يدل على تمكث. يقال: لبث بالمكان: أقام. قال الله – تعالى:﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].."[(١)].

ويقول ابن منظور عند حديثه عن هذه المادة: "اللَّبْث واللُّباث: المكث. قال الله – تعالى:﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ [النبأ: ٢٣].. يقال لَبِث لُبْثًا ولَبْثًا ولُبَاثًا، كل ذلك جائز. وتلَبَّث تلبُّثًا، فهو مُتَلَبِّث"[(٢)].

ونقل ابن منظور – عن ابن سيده– معنى الإقامة في هذه المادة حيث يقول: "لبِث بالمكان يلبَث لَبْثاً ولُبْثاً ولَبَثَانًا ولَباثَةً ولبِيثَةً، وأَلبثتُهُ أنا، ولبَّثْتُه تَلْبِيثًا، وتَلَبَّثَ: أقام، وأنشد ابن الأعرابي:

غرَّكِ منّي شَعَثي ولَبَثي ... ولِمَمٌ حَوْلَك مِثلُ الحُرْبُثِ

ومعناه: أنه شيخ كبير، فأخبر أنه إذا مشى لم يَلحق من ضعفه، فهو يتلبَّث، وشبه لمم الشبان في سوادها بالحربث، وهو نبت أسود سهلي"[(٣)].

---

(١) – معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس: ٥/ ٢٢٨ (لبث)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر– بيروت، ١٣٩٩هـ– ١٩٧٩م.

(٢) – لسان العرب لابن منظور: ٢/ ١٨٢ (لبث)، دار صادر– بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

(٣) – السابق نفسه والصفحة نفسها، وراجع – أيضا: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده: ١٠/ ١٥٤، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتﷺب العلمية– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م.

وسار معظم أصحاب المعاجم في هذا الفلك؛ حيث اقتفوا أثر سابقيهم، ونهجوا سبيلهم عند حديثهم عن تلك المادة[(١)]؛ إلا أن السمين الحلبي قد فصّل المجمل، وبسط الموجز؛ حيث ذكر كلام من سبقه، مضيفًا إليه ما ارتآه واقتدح له زند رأيه، من خلال النصوص المختلفة التي ساقها.

يقول صاحب عمدة الألفاظ: "اللبث: الإقامة بالمكان، يقال: لبث يلبث فهو لابث ولبث لبثًا.. وقيل: اللبث: الإقامة الطويلة، فهي أخص من الإقامة، فكل لبث إقامة، وليس كل إقامةٍ لبثًا"[(٢)].

وهكذا نجد أن معظم أرباب المعاجم قد أطلق معنى اللبث على الإقامة مطلقًا، دون تقييد بإقامة طويلة أو قصيرة، وهذا ما اهتدت إليه الدراسة من خلال المقامات المختلفة لتلك المادة، وعضدته السياقات التي انضوت فيها، وقرائن الأحوال التي اكتنفتها – أيضًا، والذي سنجده مبثوثًا بشيء من التفصيل في الصفحات القادمة إن شاء الله – تعالى.

(١) – راجع على سبيل المثال: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري: ١/ ٢٩١، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين– بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ٧٣٣، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية– دمشق بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، والقاموس المحيط للفيروزآبادى: ١٧٥، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع– بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ– ٢٠٠٥م.

(٢) – عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي: ٤/ ٦، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م.

المحور الأول: مقامات التعبير بمادة "لبث" في سياق القصص القرآني.

حيثما يتتبع الباحث مقامات التعبير بمادة "لبث" يجد أن كثيرًا منها جاء في سياق القصص القرآني، ولعل ذلك لتفتقها عن دلالات وارتباطها بمعانٍ تتناسب – في طبيعتها– مع طبيعة القصص القرآني، وما يرمي إليه من غايات وأهداف، وذلك على النحو الذي سوف تسعه مقامات هذا المحور تفصيلًا وتحليلًا.

وانتظم في سلك هذا المحور اثنا عشر مقامًا، راعيت في تناولها الترتيب المصحفي، واتخذت هذا المنهج إمامًا في المحور الآخر الذي بنيت عليه الدراسة، وذلك على النحو الآتي.

المقام الأول

مقام معاينة إحياء الموتى واستعظام قدرة المحي

يتحقق هذا المقام في قصة هذا الرجل الذي مر على قرية: باد أهلها، وفني سكانها، وسقطت سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فلم يبقَ بها أنيس، بل بقيت موحشة من أهلها مقفرة، فوقف عليها ذلك الرجل متعجبًا ومتفكرًا، فيما آل أمرها إليه، بعد العمارة العظيمة. يقول تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

والمتأمل في هذه الآية يجد أن الفعل الماضي "لبث" قد تكرر ثلاث مرات، وإنما أوثر التعبير بمادة "لبث" – دون "قام" أو "بقي" أو "مكث" أو "ظل" مثلا– لأن هذه المادة هي التي تناسب المقام وتصوره أبلغ تصوير، دون غيرها من المترادفات الأخرى؛ إذ اللبث: الإقامة في المكان – ملازمًا له–

إقامة طويلة، فهي أخص من الإقامة، فكل لبث إقامة، وليس كل إقامة لبثًا[1]، ومعلوم أن لبث هذا الرجل ميتًا قد امتد مائة عام، كما قرر النظم الكريم.

وجاءت المرة الأولى في سياق الاستفهام في قوله "كم لبثت" وذلك إظهارًا لعجزه عن الإحاطة بشؤونه تعالى، وليطّلع – أثناء ذلك– على بدائع قدرته بإبقاء الغذاء – الذي لم يتسارع إليه الفساد– مع مضي الزمن الطويل، وليعلمه أن إحياءه كان بعد مدًى طويل؛ وبذا يزول من نفسه الاستبعاد الذي خطر على باله – أولًا– في قوله "أنى يحي هذه الله بعد موتها".

ولعل فيه – أيضًا– نوعًا من التأنيس له في هذا المقام الموحش، بتهيئته لما سيخبره به من مدة لبثه في المكان الذي رقد فيه مائة عام، وتأكيد هذا من حذف مميز "كم"، كما جاء في سياقات أخرى، من مثل قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢].

فالسؤال جاء موجزًا محكمًا، ودقيقًا معبرًا؛ ليتوصل إلى المعنى الأم – وهو قدرته – تعالى– على الإحياء بعد الموت– بأقرب طريقة، وأوجز عبارة، وأيسر بيان، وهذا هو منهج القرآن الكريم وطريقته في بناء مثل هذه الأساليب.

كما أن في السياق دلالة – أيضًا– على المسكوت عنه في السؤال، وإشارة عليه، وتنبيهًا إليه، فذكره ليس فيه كبير فائدة، ولا يتعلق به غرض.

ويلمح من مجيء الفعل في سياق الاستفهام "كم لبثت" التنبيه على حدوث ما حدث من الخوارق، وإلا فمن المعلوم أن الميت لا يمكنه – بعد أن صار حيًا– أن يعلم أن مدة موته طويلة أو قصيرة.[2]

(١)– راجع: المفردات للراغب: ٧٣٣، وعمدة الحفاظ: ٦/٤ (لبث).

(٢)– راجع: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٢/ ٢٦.

وإجابة الرجلِ الملكَ بما أجاب به – في قوله "لبثت يومًا أو بعض يوم"– فيه استقصار لتلك المدة التي مات فيها – بناءً على الظن لا بطريق الكذب– لكونه قد زالت معرفته وحواسه، وهذا الاستقصار مدلول عليه من النص على العدد "يومًا أو بعض يوم"، ومن تنكير اليوم وجزئه – أيضًا، والظاهر أنه علم أن ذلك اللبث كان بسبب الموت، بأمارات شاهدها في نفسه، وفي حماره.

وحرف العطف "أو" – في هذا الجواب– قد يحمل على الإضراب؛ ومما يؤيد هذا المعنى ويعضده ما رواه المفسرون "أنه مات ضحًى، وبعث بعد مائة سنة قبل غيبوبة الشمس، فقال – قبل النظر إلى الشمس– (يومًا)، ثم التفت فرأى الشمس باقية – ظن أنها شمس ذلك اليوم– فقال: (أو بعض يوم)، فكان قوله: (أو بعض يوم) رجوعًا منه عن قوله: (لبثت يوما).."[1]، وهذا ينفي أن علمه ذلك كان بسبب الموت بأمارات شاهدها في نفسه وفي حماره.

ولو ارتضينا بأن هذا الحرف يفيد الإضراب – في هذا المقام– لزمنا أن نحمل قول هذا الرجل: "أو بعض يوم" على أنه كان جازمًا بذلك متأكدًا من قوله، ولكن إذا نظرنا إلى حال المتكلم آنذاك حملناها على الشك – وهو أصل معناها– ويؤيد هذا ما ذكره المفسرون سلفًا من أنه مات ضحًى، وبعث بعد مائة سنة قبل غيبوبة الشمس، كما يؤيده قول السائل على طريق الإضراب: "بل لبثت مائة عام"، فإنه ظاهر الدلالة على أن "أو" على أصل معناها، وهو الشك.

ف"أو" التي في قوله: "أو بعض يوم" تفيد الشك على الأرجح؛ لأنه إنما قال هذا حسب ظنه، وعليه فلا يكون كاذبًا فيما أخبر به، ونظيره قول أصحاب الكهف:﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] على ما توهموه ووقع عندهم.

(١)– راجع: تفسير الطبري: ٥/ ٤٥٨، والبحر المحيط: ٢/ ٦٣٤.

فهذا الرجل عندما أجاب بقوله: "يومًا" كان ذلك هو اليقين عنده، وعندما رأى ضوء الشمس باقيًا قال: "أو بعض يوم" على سبيل الشك عنده، وأنّى له أن يتيقن حتى يجزم بأنه لبث ميتًا بعض يوم؟!

وقد خرج الكلام في الجمل الثلاث مخرج المحاورة؛ زيادة في إيناس نفسه، وتطمين قلبه في هذا المقام المفزع، الذي اكتنفه من بين يديه ومن خلفه.

ولا يخفى أن أسلوب الإضراب "بل لبثت مائة عام" عطف على مقدر مفهوم من الكلام، أي: ما لبثت هذه المدة، بل لبثت مائة عام.

والإضراب – هنا– جاء بـ"بل" – التي هي أصل أدواته– في سياق الاستفهام لتناغمها مع المقام الذي جاء في تقرير حقيقة البعث، وإثباتها إثباتًا لا خفاء فيه ولا مواربة، ودلالة "بل" على الإضراب صراحة يتناغم مع هذا المقصد، ويفي بهذا الغرض، ثم إنها الأقوى لما سبق في رفع حالة الشك التي انتابت المخاطب في مدة لبثه، كما ظهر جليًا عند تحليل قوله "لبثت يومًا أو بعض يوم".

وإنما ذكر المسند "لبثتُ" لإجراء الجواب مجرى السؤال في الصياغة، ولا يخفى أن بناء الأسلوب على هذا النحو يحدث نوعًا من إثارة التنبه، ولفت الذهن، كما أن في ذكره – أيضًا– زيادة تقرير الكلام، وتثبيت معناه وتوضيحه؛ لأن الغرض يتعلق به، فإن المسند لو حذف لدل عليه السؤال – أولًا– "كم لبثت"، والمقصود من الذكر أن يتقرر أن الله ألبثه ميتًا مائة عام.

وفيه إشارة أخرى، هي أنه لا يسأل عن الإحياء بعد الموت –أعني عن إمكانه– سؤال مستبْعِد منكر إلا من في عقله غشاوة، تحجبه عن الإدراك النافذ، والرؤية الصادقة، فمثله لا يعول في خطابه على ذكاء.

ثم إن تكرار المسند – مرة أخرى في أسلوب الإضراب "بل لبثتَ مائة عام"– فيه نوع من تأنيس هذا الرجل، وإسكان رَوْعه، وإذهاب خِيفته؛ فالحوار

يدور حول إماتته مائة عام ثم إحيائه مرة أخرى، وهذا أمر غير معهود ولا مألوف، ولم يسبق إليه.

فبناء الأسلوب فيه من العجب كما ترى، فقد قرر القضية بذكر المسند، وأقام برهانًا بتكراره مرة أخرى، فأصاب في الإفحام وأدمج القضية ودليلها، في أنفذ عبارة وأبينها، وكأنه يجمع بين الإيجاز الشديد، وذكر ما يمكن حذفه، وهكذا الأساليب العالية، لا تتبين فيها موضع إطناب من وجه إلا وترى إيجازًا خفيًا من وجه آخر؛ ولهذه القيمة البلاغية عمد القرآن في كثير من المواطن إلى أسلوب التكرار؛ ليوثق المعاني في النفوس، فجاء المسند مكررًا في مواطن كثيرة جدًّا.(١)

ولعل السر في بقائه ميتًا مائة عام، حتى يبلى وتتفرق عظامه هو وحماره، ويُستبدل الناس – أو معظمهم– الذين كان يعرفهم هذا الرجل لتكون العبرة أبلغ والعظة أوقع، "فالإحياء بعد تراخي المدة أبعد – في العقول– من الإحياء بعد قرب المدة، وأيضًا فلأن بعد تراخي المدة ما يشاهد منه، ويشاهد هو من غيره أعجب"(٢).

ويعضد هذه العلة ما جاء في سياق النظم الكريم من جعله آية؛ فمن عرفه من الناس شابًا كاملًا، إذا شاهدوه بعد مائة سنة، على شبابه وقد شاخوا أو هرموا، أو سمعوا بالخبر، أنه كان مات منذ زمان – وقد عاد شابًا– صح أن يقال لأجل ذلك: إنه آية للناس؛ لأنهم يعتبرون بذلك، ويعرفون به قدرة الله – تعالى، ونبوة نبي ذلك الزمان.

وسواء أكان العدد المذكور "مائة عام" مقصود على سبيل الحقيقة أم هو كناية عن الكثرة –على طريقة العرب في التعبير عن الأعداد– فالمقصود أن هذه الأشياء قد أماتها الله موتًا كاملًا، وظلت زمانًا متطاولًا يستحيل معه

(١)– راجع: خصائص التراكيب، د. محمد أبو موسى: ٢٩٣ وما بعدها.
(٢)– مفاتيح الغيب: ٧/ ٢٩.

أن يظن الإنسان أنها يمكن أن تعاد مرة أخرى، ولكنها قدرة الله –عز وجل– الذي يقول للشيء كن فيكون.

ومن بديع النظم وتناسقه، وجماليات المفردة القرآنية وتمكنها في موقعها؛ اصطفاء التعبير بـ"البعث" دون "الإحياء"؛ لأن قوله "ثم بعثه" يدل على أنه "عاد كما كان – أولًا، حيًا عاقلًا فهِمًا، مستعدًا للنظر والاستدلال في المعارف الإلهية، ولو قال: "ثم أحياه" لم تحصل هذه الفوائد"(١).

ولما ظن هذا الرجل أن لبثه كان زمانًا قليلًا ووقتًا يسيرًا؛ جاء العطف بـ"الفاء" في قوله "فانظر"؛ حيث فرع على لبثه المائة ما هو أظهر منه، وهو عدم تغير الطعام والشراب، وبقاء الحيوان حيًا من غير غذاء.(٢)

ثم إن التفريع بـ"الفاء" فيه ملمح دقيق ونكتة لطيفة، وهو التأكيد على ما ترنو إليه الجملة السابقة، وإماطة اللثام عن كل ما يعتريها من شك أو وهم؛ فالشبهة كلما كانت أقوى – مع علم الإنسان في الجملة أنها شبهة– كان سماع الدليل المزيل لتلك الشبهة آكد، ووقوعه في العمل أكمل.

فكأنه تعالى لما قال: "بل لبثت مائة عام" قال: "فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه"، فإن هذا مما يؤكد قولك: "لبثت يومًا أو بعض يوم"، فحينئذ يعظم اشتياقك إلى الدليل الذي يكشف عن هذه الشبهة، ثم قال بعده: "وانظر إلى حمارك"، فرأى الحمار صار رميمًا وعظامًا نخرة، فعظم تعجبه من قدرة الله – تعالى.

ومعلوم أن الطعام والشراب يسرع التغير فيهما، والحمار ربما بقي دهرًا طويلًا وزمانًا عظيمًا، فرأى ما لا يبقى باقيًا – وهو الطعام والشراب– وما يبقى غيرَ باقٍ – وهو العظام– فعظم تعجبه من قدرة الله – تعالى، وتمكن وقوع هذه الحجة في عقله وفي قلبه.(٣)

---

(١)– السابق نفسه: ٧/ ٣٠

(٢)– راجع: روح المعاني: ٢/ ٢٣.

(٣)– راجع: مفاتيح الغيب: ٧/ ٣٢.

والمراد بقوله "لم يتسنه"، أي: لم تغيره السِنون والأعوام، بل هو باقٍ على طراوته وغضارته، وإنما أفرد الضمير في قوله "لم يتسنه"؛ لأن الطعام والشراب كالجنس الواحد، وإما من الأخير اكتفاء بدلالة حاله على حال الأول، ويؤيده قراءة من قرأ[١]: وهذا شرابك لم يتسنه.

وقد جمع الله لهذا المار على القرية أنواع الإحياء جميعها؛ إذ أحيي جسده بنفخ الروح- عن غير إعادة- وأحيي طعامه بحفظه من التغير، وأحيي حماره بالإعادة، فكان آية عظيمة للناس الموقنين بذلك.[٢]

والمتتبع للقصص القرآني يلحظ أن أحد مقوماته الحذف إيجازًا أو لداعٍ آخر يقتضيه المقام؛ فقوله تعالى: "قال كم لبثت" استئناف مبني على السؤال، كأنه قيل: فماذا قال له بعد بعثه؛ فقيل: "قال كم لبثت". وقوله تعالى: "قال بل.." استئناف آخر، و"بل لبثت" عطف على مقدر. أى: ما لبثت ذلك القدر بل هذا المقدار، وقوله تعالى: "فانظر" أمر حذفت علته، أي: لتعاين أمرًا آخر من دلائل قدرتنا. وقوله تعالى: "وانظر إلى حمارك" علته المحذوفة: ليتبين لك ما ذكر من اللبث المديد وتطمئن به نفسك، وقوله تعالى: "وانظر إلى العظام" علته المحذوفة: لتشاهد كيفية الإحياء في غيرك بعد ما شاهدت نفسه في نفسك[٣].

(١)- نسبت هذه القراءة لعبد الله بن مسعود. راجع: البحر المحيط: ٢/ ٦٣٥.

(٢)- راجع: التحرير والتنوير: ٣/ ٣٧.

(٣)- ينظر في هذا الأمر: مفاتيح الغيب: ٣٢/٧، والبحر المحيط: ٢٩٢/٢ وما بعدها، وتفسير أبي السعود: ٢٥٤/١ وما بعدها، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي لشهاب الدين الخفاجي: ٣٣٨/٢، دار صادر- بيروت، الطبعة الأولى، (د.ت).

المقام الثاني

مقام الرد على المكذبين المنكرين أن القرآن من عند الله

واتضح هذا المقام جليًا في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

فهذه الآية من كمال حجته، وتمام برهانه ﷺ بأن هذا القرآن ليس من قبله، ولا من عنده، وإنما هو من عند الله، ولو شاء – سبحانه– ما بعثه به، ولا تلاه عليهم، ولا أعلمهم به، ثم إنهم قد وجدوه في السداد مستقيمًا، وللرشاد مستديمًا.

وإخراج الكلام مخرج العلة – بقرينة دخول الفاء في أوله "فقد لبثت فيكم"– فيه تقرير للرد وتأكيد على بطلان طلبهم السابق في قوله تعالى:﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: ١٥]، وأنه لا يقوم على أساس؛ فإن علة الشيء هي برهانه المصحح له، ودليله المقتضي له في منطقه المستقيم.

ثم إن إخراج الكلام مخرج العلة فيه نوع تجهيل لهؤلاء المعاندين وتسفيه لهم؛ فقد أقام بينهم يافعًا وكهلًا، فلم يعرفوه متعاطيًا شيئًا من نحوه، ولا قدر عليه، ولا كان متواصفًا بعلم وبيان، فيتهموه باختراعه، فكيف غاب عنهم الفرق بين كلام الله وبين كلامه، وهم عمد البلاغة وأساطين البيان!

وقد تعانق على تقرير الرد وتوكيده – إلى جانب إخراج الكلام مخرج العلة– بناء العبارة نفسه، من إيثار حرف التحقيق "قد"، ودخولها على الفعل الماضي من اللبث خاصة – والذي يفيد تحقق اللبث وحصوله– ومن تقديم الجار والمجرور "فيكم" على المفعول "عمرًا"، ومن تنكير "عمرًا"؛ للدلالة على الكثرة وطول المدة.

فصياغة التركيب تشير إلى أن القرآن معجز خارق للعادة؛ فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة، لم يمارس فيها علمًا، ولم يشاهد عالمًا، ثم قرأ عليهم كتابًا بزت فصاحته فصاحة كل منطيق، وعلا من كل منثور ومنظوم، وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين – على ما هي عليه– علم أنه معلوم به من الله – تعالى.(١)

كما يلمح من التركيب معنى لطيف، ومغزى دقيق، وهو نفي الشبهة عنه ﷺ بالدليل القاطع والبرهان الساطع؛ فقد لبث فيهم مدة شبابه لم يعص الله قط، أفيريدون منه الآن – وقد بلغ أربعين سنة– أن يخالف أمر الله، ويغير ما ينزله عليه، بعد أن "كلا عمره، وتقاصر أمله، واشتدت حنكته، وخوفه لربه"(٢)، كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

فالقرآن هو الحق الذي لا محيص عنه، والبرهان الذي لا ريب فيه، ولو لم يرسل به محمد ﷺ لأرسل به غيره، ويؤيد هذا من النظم قراءة ابن كثير(٣) "ولأدراكم به"(٤) – بغير ألف وبلام التأكيد– والمعنى: لو شاء الله ما تلاه عليكم محمد ﷺ، ولأعلمكم به على لسان غيره ﷺ، فكيف تتجرؤون وتزعمون أن محمدًا قد افتراه، مع أنه قد مكث فيكم عمرًا مديدًا، وزمنًا طويلًا.

ومن بديع النظم وجمال الأسلوب تناغم كلمة "عمرًا" مع الفعل الماضي "لبثت"، ومدى ذلك التناسق والتناسب بينهما؛ إذ دل العمر منكرًا –

(١)– راجع: تفسير البيضاوي: ٣/ ١٠٨.

(٢)– المحرر الوجيز: ٣/ ١١٠.

(٣)– المبسوط في القراءات العشر لأبي بكر النيسابوريّ: ٢٣٢، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، الناشر: مجمع اللغة العربية– دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

(٤)– وقراءة الجمهور: "ولا أدراكم به"، فـ"لا" مؤكدة وموضحة أن الفعل منفي؛ لكونه معطوفا على منفي، وليست "لا" هي التي نُفي الفعل بها؛ لأنه لا يصح نفي الفعل بـ"لا" إذا وقع جوابًا، والمعطوف على الجواب جواب. وأنت لا تقول: لو كان كذا لا كان كذا، إنما يكون ما كان كذا.

في هذا السياق- على طول المدة التي لو عاش المرء مقدارها؛ لكان قد أخذ حظه من البقاء.

وليس المراد: لبثت مدة عمري؛ لأن عمره صلى الله عليه وسلم لمّا ينته، بل المراد: مدة قدرها قدر عمر متعارف؛ أي: بقدر مدة عمر أحد من الناس، والمعنى: لبثت فيكم أربعين سنة قبل نزول القرآن.(١)

ومما يعضد هذا المعنى ويقويه، ويدرأ شبهتهم ويدحضها(٢) التعبير بالجار والمجرور "فيكم"، وتقديمه على ما ينوب عن ظرف الزمان "عمرًا"؛ فقد بلغ بين ظهرانيهم هذه المدة، يطلعون على أحواله، ولا يخفى عليهم شيء من أسراره، وما سمعوا منه حرفًا من ذلك، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس إليه وألصقتم به.

فتقديم الجار والمجرور – هنا- للتخصيص؛ إذ هو الأبلغ في الرد، الأقوى في دحض حجتهم؛ إذ لم يقم بين غيرهم، فيتغير عن حاله، أو يلتبس عليهم أمره حتى يشكّوا فيه.

وقرأ الجمهور بالبيان في "لبثتم"، بإتيان الكلمة على أصلها، وقرأ أبو عمرو "لبثُّ" – بإدغام الثاء في التاء- لقرب مخرج الثاء من التاء، فأجراهما مجرى المثلين، من حيث اتفق الحرفان في أنّهما من طرف اللسان وأصول الثنايا، واتّفقا في الهمس، ورأى الذي بينهما من الاختلاف في المخرج خلافًا يسيرًا فأدغم.

ويقوي الإدغام فيه – أيضًا- أن التاء ضمير فاعل، وضمير الفاعل يجري مجرى الحرف من الكلمة، يدل على ذلك وقوع الإعراب بعد ضمير الفاعل في: (يقومان)، ونحوها، وسكون اللام في نحو: (فعلت)، فضارع بذلك

(١)- راجع: التحرير والتنوير: ١١/ ١٢٢.

(٢)- بمجيئه ﷺ بقرآن آخر أو تبديله، كما زعموا في الآية السابقة:﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

الحرفين المتصلين، وإذا صار بمنزلة المتصلين – من حيث ذكرنا– لزم الإدغام، كما لزم في (ستّ)، وكما أدغم من أسكن العين في (وتد)، فقال: (ودّ).[١]

والضمير في قوله "من قبله" يعود على القرآن، وأجاز الكرماني أن يعود على التلاوة، وعلى النزول، وعلى الوقت يعني: وقت نزوله.[٢]

والظاهر الأول لأنه يستلزم كل هذه المراجع التي ذكروها، والمعنى حينئذ: فقد لبثت فيكم عمرًا من قبل القرآن، تعرفونني بالصدق والأمانة، لا أقرأ ولا أكتب، ثم جئتكم بالمعجزات الباهرات الواضحات، والآيات البينات الصادقات.

وذيل الأسلوب بهذا الاستفهام الإنكاري التعجبي التقريعي: "أفلا تعقلون"، والذي يفيد أنه لو كان منتحلًا ما ليس له من القول، كان قد انتحله في أيام شبابه وحداثته، وقبل الوقت الذي تلاه عليهم.

فأسلوب الاستفهام فيه جواب عما دسوه تحت قولهم: "ائت بقرآن غير هذا أو بدله" من إضافة الافتراء إليه؛ حيث كان غرضهم في هذا القول الكيد والمكر، وفيه أنه من عندك، وأنت قادر على مثله، وأنه إن وجد منه تأويل، فإما أن يهلكه الله، أو يسخروا منه، ويجعلوه حجة عليه وتصحيحًا لافترائه.[٣]

وإنما ظهر من هؤلاء المنكرين المعاندين ما يجعلهم كمن لا يعقل؛ ولذلك أوثر التعبير بلفظ "تعقلون"؛ لأن العقل هو أول درجات الإدراك، كما قرر العلماء.

وحذف مفعول "تعقلون" لدلالة الكلام السابق عليه، وإشارته إليه، والتقدير: أن من كان هذا حاله – من الجمع بين الأمية والإتيان بهذا الكلام

(١)– راجع: الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي: ٢/ ٣٧٧ وما بعدها.
(٢)– راجع: البحر المحيط: ٦/ ٢٦.
(٣)– راجع: حاشية الطيبي: ٧/ ٤٤٩.

البديع- لا يتأتى مثله في العادة إلا إذا كان نبيًا مرسلًا عن الله، وقد أوحى الله إليه هذا القرآن.

وقد ينزل هذا الفعل منزلة الفعل اللازم، فلا يقدر له مفعول أصلًا، والمعنى: أفلا يكون منكم عقلٌ تُعملونه في الاهتداء للحق، وفهمٌ تدركون به أن من كان هذا حاله وتلك صفاته؛ لا يكون إلا من وحي الله، فإنكار العلوم الضرورية يقدح في صحة العقل، كما لا يخفى، وهذا أولى مما ذكر - أولًا؛ لأنه الأبلغ إنكارًا وتعجبًا وتقريعًا، ولأنه يشمل الأول فيما يشمله.

فتنزيل هذا الفعل منزلة اللازم أشد في الإنكار، وآكد في التوبيخ، وأنكى في تقريع هؤلاء المعاندين الذين لا يودون إعمال عقولهم، والنظر في تلك الحجج القاطعة والبراهين الساطعة التي أتاهم بها محمد ﷺ.

المقام الثالث

مقام تصوير إكرام إبراهيم – عليه السلام – لضيفانه

ورد هذا المقام في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩].

وتضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة؛ فإبراهيم – عليه السلام – لما توهم الملائكة أضيافًا قام بحق الضيافة، فقدم خير ما عنده ما شكره الحق عليه.

ونفي اللبث عن إبراهيم – عليه السلام – مبالغة في تصوير عجلته، فلم يمكث ولم يبطئ، كما أن فيه إشارة إلى أنه غمر البديهة بالنوال، ومهتش للبذل والعطاء؛ فالضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خلق النبيين والصالحين، وإبراهيم أول من أضاف على ما ذكره المفسرون.(١)

والتركيب الذي ورد فيه هذا الفعل الماضي يؤكد إسراع إبراهيم – عليه السلام – في إكرام ضيفه، وعدم التراخي أو التساهل فيه، وأنه – عليه السلام – سني المواهب، فياض اللُّهى من وجوه شتى:

منها: التعبير بـ"الفاء" في قوله "فما لبث.." والتي تفيد التعقيب –هنا، فدل ذلك على أن مجيئه بذلك العجل الحنيذ كان بعد إلقاء السلام مباشرة، كأنه كان مشويًا معدًا لمن يجيء من الضيف، أو شوي عند وصولهم من غير تريث، ولا تمهل.

ومنها: التعبير بـ"أن" – التي بمعنى "حتى" في هذا المقام– يؤكد هذا المعنى أيضًا؛ إلا أنَّ "أنْ" على حرفين، وبنيت على مقطع صوتي واحد، كما أن النون الساكنة فيها نوع خفة وسرعة – دون "حتى"– فالنطق بها لا يستغرق وقتًا.

---

(١)– راجع: تفسير الطبري: ١٥/ ٣٨٧، وتفسير القرطبي: ٩/ ٦٢.

وكأن صياغة الكلام على هذا النحو تصور سرعة كرم إبراهيم – عليه السلام – وعدم لبثه في تعجيل القرى لهؤلاء الأضياف، وربما لا تشي "حتى" بكل هذه المعاني.

ومنها: نفي فعل "اللبث" الماضي بـ"ما" في قوله "فما لبث" الذي يفيد أنه – عليه السلام – لم يمكث زمنًا بين نزول الملائكة عليه، ولم يبطئ في تقديم واجب الضيافة، ومراعاة حق الضيف، من المسارعة إلى إعداد ما يكرم به ضيفه.

ومنها: إيثار صيغة الماضي من اللبث؛ للدلالة على تحقق انتفاء اللبث وحصوله.

ومنها: الإيجاز بالحذف الذي ذكره بعض المفسرين في تأويل معنى "أن"، وهو ما يؤازر التأكيد – أيضًا – على تحقيق الغرض الرئيس والمعنى الأم الذي سيق لأجله الكلام؛ حيث ذكر أبو حيان وغيره: أنَّ "أنْ" في موضع نصب بسقوط حرف الجر، والتقدير: فما لبث عن أن جاء، أي: ما أبطأ عن مجيئه بعجل، فلما حذف حرف الجر بقي "أن" في محل النصب.(١)

ومنها: أنه قدم لهؤلاء الأضياف – مع قلة عددهم(٢)– عجلًا "وهو ولد البقرة"، ولم يقدم لهم شيئًا دونه، وفي مجيئه بالعجل كله – مع أنهم بحسب الظاهر يكفيهم بعضه– دليل على أنه من الأدب أن يحضر للضيف أكثر مما يأكل.(٣)

(١)– البحر المحيط: ٦/ ١٨٠، وراجع: تفسير الطبري: ١٥/ ٣٨٦، وتفسير القرطبي: ٩/ ٦٣، وروح المعاني: ٦/ ٢٩١.

(٢)– ذكر الطبري أنهم كانوا ثلاثة فقط: جبريل وميكائيل وإسرافيل.. وقيل غير ذلك. راجع تفسير الطبري: ١٥/ ٣٨١ وما بعدها، والبحر المحيط: ٦/ ١٨٠.

(٣)– راجع: روح المعاني: ٦/ ٢٩١.

ولعل مال إبراهيم – عليه السلام – كان البقر[١]، فقدم أحسن ما فيه وهو العجل، كما لا يخفى.

ومنها: تقييد العجل بهذا الوصف "حنيذ"؛ إذ الحنيذ هو المشوي بالرضف في أخدود، قال ابن فارس: "الحاء والنون والذال أصل واحد، وهو إنضاج الشيء، يقال: شواء حنيذ أي منضج، وذلك أن تحمى الحجارة، وتوضع عليها حتى ينضج"[٢].

وكان الحنيذ من فعل أهل البادية معروفًا، وهو محنوذ في الأصل، كما قيل: طبيخ ومطبوخ، والمشوي على الحجارة المحمية يكون أنظف من المشوي على النار، وألذ طعمًا.

كما أن التقييد بهذا الوصف فيه ملمح دقيق، ولفتة عجيبة، تتناسب مع نفي اللبث وتؤكده، وهو أن الشي أسرع من الطبخ، فهو أعون على تعجيل إحضار الطعام للضيف.

وذكر الزمخشري وغيره معنى آخر، ربما يكون مرادًا في هذا القيد، وهو أن "الحنيذ هو الذي يقطر دسمه، من حنذت الفرس: إذا ألقيت عليها الجل حتى تقطر عرقًا، ويدل عليه ما جاء في آية الذاريات: (بعجل سمين).."[٣].

(١)- الكشاف: ٢/ ٤٠٩، والبحر المحيط: ٦/ ١٨٠.

(٢)- مقاييس اللغة: ٢/ ١٠٩ (حنذ).

(٣)- الكشاف: ٢/ ٤١٠ ببعض تصرف، وراجع أيضا: المحرر الوجيز: ٣/ ١٨٨، وتفسير أبي السعود: ٤/ ٢٢٤.

المقام الرابع

مقام تعيين مدة لبث يوسف – عليه السلام– في السجن

وقد جاء من مادة "لبث" – موضع البحث– في ظلال هذا المقام قول الله سبحانه: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

لما ظن يوسف أن الشرابي سينجو من غياهب السجن؛ طلب منه أن يصفه– عليه السلام– عند الملك بصفته، وأن يقص عليه قصته؛ لعله يرحمه ويخلصه من هذه الورطة، فأنسى الشيطان يوسف ذكر الله، حين وكل أمره إلى غيره، فلبث في السجن بضع سنين.

والذي يتأمل صيغة "لبث" يجد أنها جاءت مناسبة للمقام؛ بدلالة قرينة الحال، وهي ما ورد أن مدة مكث يوسف – عليه السلام– في السجن خمس سنوات، أو سبع، على حد ما ذكره المفسرون.(١)

ثم إن تلك الصيغة تنادي عليها عناصر السياق وتتواءم معه؛ بدلالة التعبير بالجار والمجرور "في السجن"، والذي أوثر فيه حرف الظرفية "في"؛ مما يشي بالتمكن والاستقرار في الشيء، وهذا لا يتحقق إلا بمدة طويلة، وأمد مديد.

وهناك برهان آخر ودليل آكد وهو قوله: "بضع سنين"، الذي أضيف فيه "بضع" إلى ما ألحق بجمع المذكر السالم، ومعلوم أن البضع ما بين الثلاث إلى التسع، كما حكي عن العرب.(٢)

---

(١)– كانت مدة لبثه كلها سبع سنين، ولبثه بعد القول سنتان، وقيل غير ذلك. راجع هذا الأمر بشيء من التفصيل في: تفسير الطبري: ١٦/ ١١٤ وما بعدها، وتفسير القرطبي: ٩/ ١٩٧، والبحر المحيط: ٦/ ٢٨٠.

(٢)– راجع: جمهرة اللغة لابن دريد: ١/ ٣٥٢ (بضع)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين– بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، وفقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي: ٦٧، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ– ٢٠٠٢م.

فهذه الإضافة فيها إشارة إلى ثقل مدة البقاء في السجن وطولها – وإن كانت مدة قصيرة– وشدة مؤونته وكلفته، وصعوبة السجن وثقل وطأته، فالعقوبة مهما كانت صغيرة فيها ثقل على النفس، وكمد وحزازة في القلب.

وتقديم الجار والمجرور "في السجن" على قوله "بضع سنين" للتأكيد على أن المقدم هو الغرض المعتمد بالذكر، وأن الكلام إنما سيق لأجله، وأنه المقصود بالحديث الذي ينبغي أن تصرف إليه الأذهان، وتتوفر عليه العناية والاهتمام، فالمشكلة ليست في لبث يوسف بضع سنين، وإنما في لبثه بضع سنين في السجن خاصة.

فالتقديم فيه إشارة إلى أن موطن الشدة والألم كان في السجن خاصة، ولو قدم "بضع سنين" لتوهم أن الضيق والمرارة كان في عدد السنين، وليس في السجن نفسه، وهذا غير مراد.

ولا يخفى أن إبهام كلمة "بضع" يتناغم مع الروايات المتعددة في تحديد عدد تلك السنين؛ لتذهب النفس كل مذهب في تحديد المدة التي مكثها يوسف – عليه السلام– في السجن.

كما أن في الإبهام إشارة – أيضًا– إلى أن تحديد العدد غير مراد، ولا يتعلق به علة، وهذا هو منهج القصص القرآني في صرف الأذهان إلى مواطن العبرة، وطي كثير من الأمور التي لا يتعلق بها غرض.

وتعريف "السجن" بـ"أل" – في هذا المقام– يشي إلى أنه سجن محدد ومعلوم، وكأنه سجن قد اشتهر من أمره السوء والنكارة، قد اجتمعت فيه صنوف الشدة وألوان العناء، ولو جاء منكرًا لما أفاد ما أفاده التعريف من معانٍ.

ومما يدل على أنه سجن محدد؛ ذكره معرفًا في سياق القصة كلها. يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف:٣٣]، ويقول تعالى:﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف: ٣٦]، ويقول تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ

ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤١]، ويقول تعالى:﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وإيثار التعبير بمادة "لبث" و"الفاء" – التي تفيد السرعة– يقرر ويؤكد على أن الضمير في قوله "فأنساه الشيطان.." يعود على يوسف – عليه السلام، فقد نسي أن يشتكي إلى الله في التخلص من محنته، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق؛ إذ لو استغاث به – تعالى– لأسرع بما هو فيه خلاصه، ولكنه زل بها، فأطال من أجلها في السجن حبسه، وأوجع لها عقوبته.

فوقوع العقوبة على هذا النحو – من السرعة واللبث في السجن تلك المدة الطويلة– لا يكون إلا من نسيان يوسف ذكر ربه، ولا يكون من نسيان الرجل الناجي تذكير الملك بما كان من شأن يوسف – عليه السلام.

المقام الخامس

مقام تثبيت النبي ﷺ وتسليته

انتظم هذا المقام ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، **وكان أولها** ما ورد في آية الإسراء؛ حيث لم يلبث صناديد قريش إلا زمنًا قليلًا بعد أن أخرجوا النبي ﷺ من مكة، فقد أهلكهم الله بعد إخراجه بقليل. يقول تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

ومما يؤكد أن المقام – هنا– مقام تثبيت وتسلية للنبي ﷺ وتسرية عنه؛ ما روي من أن اليهود حسدوا مقام النبي ﷺ بالمدينة، فقالوا: الشام مقام الأنبياء، فإن كنت نبيًا فالحق بها حتى نؤمن بك، فوقع ذلك في قلبه، فخرج مرحلة فنزلت، فرجع، ثم قُتل منهم بنو قريظة، وأُجلي بنو النضير بقليل.(١)

وقد ورد التعبير بمادة "اللبث" على صيغة المضارع في هذه الآية، وهو ما يتواءم مع سياق الاستقبال الذي بنيت عليه الآية، وذلك في قوله "ليستفزونك"، وقوله "ليخرجوك"، وبدلالة "لا" النافية التي تخلص المضارع للاستقبال عند اقترانها به.

ولا يخفى ما في جملة "وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلًا" من معنى التهديد والوعيد؛ لأن المقصود أنهم لا يبقون بعد إخراجه صلى الله عليه وسلم إلا زمنًا قليلًا؛ لأن الله سيهلكهم.

على أن معنى التهديد والوعيد – الذي تشي به الجملة– يتناغم مع مقام التثبيت والتسلية؛ لأن فيه دلالة على أن الله معه، وهو مؤيده وناصره ولن يخذله.

كما أن التركيب يشير إلى معنى المفاجأة والسرعة الذي يتلاءم مع معنى التهديد والوعيد – أيضًا؛ وذلك من إيثار "إذن" التي يتحقق فيها هذا

(١) - راجع: تفسير الطبري: ١٧/ ٥١٠، وتفسير البيضاوي: ٣/ ٢٦٣.

المعنى؛ لأن وقوع الشيء على نحو من المفاجأة والمباغتة يكون أشد على النفس، وأنكى من الأمر المترقب، المتوقع حصوله؛ لأنه لا يترك للمهدد فرصة الاستعداد وتصحيح المواقف، وأخذ الحيطة.

وقد أسهمت عناصر التركيب في إبراز المعنى الأم الذي يدور حوله الأسلوب، ومن ذلك الاستثناء الذي يحمل معنى التأكيد على قصر مدة لبثهم بعد إخراجهم النبي ﷺ.

ثم إن المتأمل في قوله تعالى: "إلا قليلًا" يلحظ أنه قد حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه، وتقدير الكلام: "إلا زمنًا قليلًا" أو "إلا لبثًا قليلًا"، ولعل السر في ذلك هو المبالغة في قصر المدة التي يلبثونها بعد إخراجهم النبي ﷺ، حتى كأن الصفة صارت عين الموصوف، فصح إقامتها مقامه.

وأما ثاني مواضع هذا المقام فقد ورد في آية العنكبوت؛ حيث بالغ المشركون في أذيتهم لرسول الله ﷺ بصنوف مختلفة من الإيذاء، فأراد الله – سبحانه– أن يثبته ويربط على قلبه؛ فكانت هذه الآية التي انضوت تحت هذا المقام، وهي قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

فنوح – عليه السلام– مكث زمنًا مديدًا يدعو قومه إلى عبادة الله – وحده، ونبذ عبادة الأصنام؛ إلا أنهم فروا واستكبروا، وآذوه أشد الإيذاء، فكانت عاقبة إعراضهم ونفورهم سريعة: عاجلة وحاسمة.

وقد وردت هذه الآية في مقام تسلية النبي ﷺ وتثبيته بذكر ما ابتلي به نوح – عليه السلام– من أمته، وما كابده من طول المصابرة، وحينئذٍ يكون إيثار مادة "اللبث" أوفق بهذا المقام، وأدخل في باب التسلية والتسرية عن الرسول ﷺ وأقوى في باب الربط والشد على قلبه ﷺ لدلالتها على طول المدة التي لبثها نوح – عليه السلام– في قومه يدعوهم إلى الله، ونبذ عبادة الأوثان.

والذي يؤكد هذا من النظم الكريم ويقويه النص على العدد "ألف سنة"، فإنه أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدة صبره.(١)

فالفائدة في ذكر مدة لبثه أن النبي ﷺ قد ضاق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الإسلام، وإصرارهم على الكفر فقيل: إن نوحًا لبث ألف سنة – تقريبًا– في الدعاء، ولم يؤمن من قومه إلا قليل، وصبر وما ضجر، فالنبي ﷺ أولى بالصبر؛ لقلة مدة لبثه، وكثرة عدد أمته.

ثم إن تحديد هذه المدة فيه تهديد مبطن، ووعيد خفي، وتحذير من الاغترار بتأخير العذاب عنهم، فمع طول المدة التي أُمهلها قوم نوح ما نجوا من العذاب، وأصابهم ما وعدوا، وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون، فبهذا المقدار من التأخير– وأدنى منه– لا ينبغي أن يغتر مشركو مكة؛ فإن العذاب يلحقهم إن أصروا على كفرهم وعنادهم.

ويشير حرف العطف – الذي سبق الفعل الماضي– إلى الترتيب والتعقيب، وأن هذا اللبث كان متصلًا بالإرسال، كما يحتمل أن تكون المدة المذكورة مدة إقامته في قومه من لدن مولده إلى غرق قومه.

وتعدية فعل "اللبث" بحرف الجر "في" يوحي بالتمكن والاستقرار، فنوح – عليه السلام– قد دعا قومه ليلًا ونهارًا، دائبًا من غير فتور، فما كان منهم إلا أن سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة، واستغشوا ثيابهم وتغطوا بها لئلا يبصروه؛ كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله، ولما كذبوه – بعد طول تكرير الدعوة– حبس الله عنهم القطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، ثم أخذهم الطوفان أخذ قهر وغلبة.

(١) راجع: الكشاف: ٣/ ٤٤٥.

وإنما جاء التعبير بقوله "ألف سنة إلا خمسين عامًا"، دون "تسعمائة وخمسين سنة"؛ لرفع توهم إطلاق هذا العدد على أكثره، وهذا التوهم زائل هنا، فكأنه قيل: تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد؛ إلا أن ذلك أخصر، وأعذب لفظًا، وأملأ بالفائدة، ولأن القصة سيقت لما ابتلي به نوح – عليه السلام– من أمته، وما كابده من طول المصابرة؛ تسلية لنبينا ﷺ، فكان ذكر الألف أفخم وأوصل إلى الغرض.(١)

ويلفت النظر اختلاف تمييز العددين؛ حيث آثر في الجملة الأولى كلمة "سنة" للإشارة إلى معنى الشدة، وما كابده نوح من مشقة في دعوة قومه، وما لقيه منهم من صدود وإيذاء، أما كلمة "عام" ففيها دلالة على معنى الرخاء والسعة؛ لما قيل إنها كانت بعد الطوفان، فزمان حياته – عليه السلام– بعد إغراقهم، كان رغدًا واسعًا حسنًا، بإيمان المؤمنين وخصب الأرض.

وكان آخر مواضع هذا المقام ما ورد في قصة يونس، حين خرجت القرعة على يونس – عليه السلام، وزج بنفسه في الماء، فالتقمه الحوت وهو داخل في الملامة، فنجاه الله؛ لأنه كان من الذاكرين الله كثيرًا بالتسبيح والتقديس. يقول تعالى:﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ – ١٤٤].

والشرط وجوابه – في هذا المقام– فيه نوع من الامتنان والتفضل والتذكير بالنعمة على يونس – عليه السلام؛ ومن هنا جاء الجواب فعلًا ماضيًا من مادة "اللبث".

ويفيد الفعل "كان" – في شرط "لولا"– رسوخ قدمه – عليه السلام– في التسبيح، وأن هذا الأمر كان ديدنه ودأبه منذ زمن بعيد، ويخالف هذا ما ذكره

(١) – راجع: تفسير النسفي: ٢/ ٦٦٨.

بعضهم من أنه كان من المسبحين في بطن الحوت[١]، وهذا غير مقصود بدليل الفعل الماضي "كان".

وإيثار جملة الجواب ماضية يتناغم – أيضًا– مع صياغة جملة الشرط في قالب مؤكد؛ وذلك من خلال اسمية الجملة، ودخول "أنَّ" المؤكدة عليها.

وتقييد الفعل "لبث" بالجار والمجرور "في بطنه" يصور مدى الضيق والشدة والكرب الذي وقع فيه يونس – عليه السلام، وهذا يجعل التقييد به أبلغ في التفضل، وآكد في التذكير والامتنان بالنعمة.

ثم يأتي قوله "إلى يوم يبعثون" الذي يحمل نوعًا آخر من المبالغة في التفضل والامتنان؛ لدلالته على طول المدة التي كان سيقضيها يونس – عليه السلام– في بطن الحوت، وهو محاط بكل هذا الهم والكرب الشديد.

فهذه العبارة قد تحمل معنى التأبيد، بأن يميت الله الحوت حين ابتلاعه يونس، ويبقيهما في قعر البحر، أو بأن يختطف الحوت في حَجَر في البحر، أو نحوه، فلا يطفو على الماء حتى يبعث يونس – يوم القيامة– من قعر البحر.[٢]

ولا يخفى أن بناء الجملة الشرطية فيه حث على الإكثار من الذكر والتعظيم لشأنه – سبحانه، وفيها دلالة – أيضًا– على أن تقديم الخير في السراء ينفع الإنسان في الضراء. يقول الزمخشري: "وهذا ترغيب من الله عز وجل في إكثار المؤمن من ذكره بما هو أهله، وإقباله على عبادته، وجمع همه لتقييد نعمته بالشكر في وقت المهلة والفسحة، لينفعه ذلك عنده – تعالى– في المضايق والشدائد"[٣].

---

(١) – راجع على سبيل المثال: الكشاف: ٤/ ٦١، والمحرر الوجيز: ٤/ ٤٨٦، ومفاتيح الغيب: ٢٦/ ٣٥٧.

(٢) - راجع: التحرير والتنوير: ٢٣/ ١٧٧.

(٣)– الكشاف: ٤/ ٦١ وما بعدها.

المقام السادس

مقام بيان أي الحزبين المتنازعين

في مدة لبث أصحاب الكهف أتقن إحصاءً

بعد أن أنام الله أصحاب الكهف – تلك الإنامة الثقيلة– أيقظهم من رقدتهم؛ ليعلم أي الحزبين المختلفين أحاط علمًا بأمد لبثهم. يقول تعالى:﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢].

فكلمة "لبثوا" تتناسب مع بيان بقاء الفتية في الكهف تلك المدة الطويلة، وما صنع الله بهم من حفظ أبدانهم؛ فقد رقدوا في هذا الكهف ما يزيد عن الثلاثمائة سنة، كما قررت الآية الأخرى.

ولا يخفى ما في هذا الأمر من زيادة يقين بكمال قدرته – تعالى– وعلمه، فيستبصروا به في أمر البعث، ويكون ذلك لطفًا لمؤمني زمانهم، وآية بينة لكفارهم.

كما أن هذه الكلمة تتلاءم مع عناصر السياق؛ إذ المراد بـ "الأمد" – في هذا المقام– هو نهاية بلوغ الغاية، والأمد والأبد أخوان، إلا أن بينهما فرقًا، وهو أن الأبد عبارة عن مدة الزمان التي ليس لها حد محدود، ولا يتقيد، فلا يقال: أبد كذا. والأمد: مدة لها حد مجهول إذا أطلق، وقد ينحصر، نحو أن يقال: أمد كذا. والفرق بينه وبين الزمن أن الأمد يقال باعتبار الغاية. والزمان عام في المبدأ والغاية. ولذلك قال بعضهم: الأمد والمدى يتقاربان.(١)

على أن تنكير "الأمد" مع إطلاق النفس بصوت الألف؛ ينبئ عن طول المدة التي لبثها الفتية في الكهف، وفي هذا إشارة – أيضًا– إلى اضطراب الناس في ضبط تواريخ الحوادث، واختلال خرصهم وتخمينهم إذا تصدوا لها، ويعلم تفريط كثير من الناس في تحديد الحوادث وتاريخها.

ثم إن هذه الكلمة تتناغم مع طبيعة الموقف، وتصوير الحدث؛ لأنه موقف تنازع وتجاذب في عدد السنين – التي مكثها الفتية في الكهف، وذلك لا يكون إلا من طول المدة، ومن كثرة عدد السنين.

---

(١)– راجع: المفردات: ٨٨، وعمدة الحفاظ: ١١٣، وما بعدها.

وهناك دليل آخر يؤازر هذا الأمر، ويأخذ بحجزه، وهو اصطفاء كلمة "الإحصاء" – دون غيرها؛ إذ إنها تستلزم كثرة العدد، فالإحصاء فيه عد وحفظ وإحاطة واستيفاء.

والضمير المسند إليه الفعل "لبث" لجماعة الفتية أهل الكهف، وإنما ذكرهم بالضمير لأن المقام مقام إضمار؛ لتقدم المرجع، ثم إن الضمير فيه نوع تفخيم وتعظيم من لبثهم في الكهف هذا الزمان الطويل.

وتعدية الفعل "لبث" إلى المفعول بحرف الجر "في" – خاصة– أبلغ في تصوير مدة لبثهم في الكهف؛ لدلالته على شده تمكنهم فيه واستقرارهم بداخله، وهذا هو الأليق بطول المدة التي لبثوها في الكهف، والله أعلم.

وإخراج الكلام مخرج الاستفهام "أي الفريقين" فيه إشارة إلى شدة تحري الأمر، وفرط التقصي، وهذا من بالغ الاهتمام به، والجد في طلبه، والسعي الدؤوب في خوض عبابه.

فالاستفهام فيه تنبيه الفريقين المتخاصمين إلى مبلغ خطرهما، فالحزبان – إن كانوا من الناس أهل بلدهم– قد اختلفت أقوالهم في مدة لبثهم، أحدهما: مصيب والآخر: مخطئ، والله يعلم المصيب منهم والمخطئ، فهما فريقان في جانبي صواب وخطأ، كما دل عليه قوله "أحصى".

فإعلام الله بمدة لبث الفتية في الكهف لإظهار الأمر لهم؛ ليزدادوا إيمانًا واعتبارًا، وليكون آية ساطعة، وحجة دامغة لكفار ذلك الزمان، وكل من اقتفى أثرهم، ونهج سبيلهم.

وجاءت جملة الصلة "لبثوا أمدًا" مبينة لما في الموصول من إبهام وعموم، وفيها نوع من تأكيد المعنى وتقرير المراد. يقول أبو حيان: "و(ما) بمعنى الذي، و(أمدًا) منتصب على إسقاط الحرف، وتقديره: لما لبثوا من أمد، أي: مدة، ويصير من أمد تفسيرًا لما أبهم في لفظ (لما لبثوا).."[1].

(١) البحر المحيط: ٧/ ١٤٧.

المقام السابع

مقام تصوير تنازع أصحاب الكهف في مدة لبثهم

وجاء التعبير بمادة "لبث" – في هذا المقام– في موضع واحد، وذلك في قوله تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

فكلمة "اللبث" تلائم حال الفتية في سؤالهم عن مدة إقامتهم في الكهف؛ لأنها تستخدم في الدلالة على البقاء في المكان زمنًا، قليلًا كان أو كثيرًا، ليعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيزدادوا يقينًا، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرمهم به.

وتكرار الفعل فيه تقرير لوقوع اللبث في الكهف وتحقيقه، فلا وجه للمنازعة، ولا مجال للجدال في هذا الأمر، وإنما النزاع في المدة التي لبثوها هل هي قليلة أو كثيرة؟

والاستفهام – هنا– استفهام حقيقي، كما هو واضح؛ لمعرفة مقدار الزمن الذي لبثوه نائمين، وهذا النوع من الاستفهام نادر الوقوع في النظم الكريم.

ولعل حذف التمييز – عقب "كم" الاستفهامية– يشير إلى أن السائل غير موقن بتلك المدة التي ضرب الله على آذانهم في الكهف؛ فهيئتهم وواقع حالهم يخالف ظنهم وحدسهم.

ثم إن طي التمييز – في هذا المقام– وإيجاز التركيب؛ يلمح – من طرف خفي– إلى لهفة السائل، وتعجله في الحرص على معرفة تلك المدة؛ لعله يجد ضالته عند أحد رفقائه، فيشفي غلته، ويسكن جأشه.

ومعلوم أن بعث هؤلاء الفتية لم يكن لنفس تساؤلهم؛ ولذلك حملت اللام في قوله "ليتساءلوا" على معنى الصيرورة، وقول القائل: "كم لبثتم" يقتضي أنه

هجس في خاطره طول نومهم، واستشعر أن أمرهم خرج عن العادة بعض الخروج.[١]

ولا يبعد أن يكون الغرض من بعثهم أن يتساءلوا ويتنازعوا؛ لأنهم إذا تساءلوا انكشف لهم من قدرة الله – تعالى– أمور عجيبة وأحوال غريبة، وذلك الانكشاف أمر مطلوب لذاته[٢]، وكأن وسيلة الاعتبار والاتعاظ، ومعرفة هذه الأمور تكون من التساؤل؛ حتى يقفوا على مدة اللبث؛ ولذا يقول الزمخشري: "وكما أنمناهم تلك النومة كذلك بعثناهم؛ إذكارًا بقدرته على الإنامة والبعث جميعًا، ليسأل بعضهم بعضًا، فيعتبروا، ويستدلوا على عظم قدرة الله – تعالى"[٣].

والراجح حمل "أو" على الشك؛ ومما يعضد هذا الأمر أنهم دخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله في آخر النهار؛ فلذلك قالوا: "لبثنا يومًا"، فلما رأوا الشمس باقية قالوا: "أو بعض يوم".

والتعبير بقوله: "ربكم أعلم بما لبثتم" فيه إشارة إلى أن السؤال عن مدة اللبث لا يفيدهم ولا يعنيهم؛ وكأن في هذه الجملة نهيًا عن التنازع أو التخاصم في مدة اللبث، وفيها توجيه للأذهان ولفت للأفهام إلى صرف العناية والاهتمام إلى ما هو أهم بالنسبة لهم جميعًا، وهو حاجتهم للطعام والشراب؛ ولذلك فرع على هذه الجملة قوله "فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما..".

وعلى هذا التقدير يكون معنى "الفاء" هو السببية؛ كأنه قيل: وإذ قد حصل اليأس من تعيين مدة اللبث، فخذوا في شيء آخر مما يهمكم، ويقيم أبدانكم، فتستطيعوا أن تقضوا حوائجكم.

---

(١)– راجع: المحرر الوجيز: ٣/ ٥٠٥.
(٢) – راجع: مفاتيح الغيب: ٢١/ ٤٤٥.
(٣) – الكشاف: ٢/ ٧٠٩ وما بعدها.

وقد تشي هذه الجملة بالإنكار عليهم من بعضهم، وأن الله أعلم بمدة لبثهم، كأن هؤلاء قد علموا بالأدلة – أو بإلهام من الله– أن المدة متطاولة، وأن مقدارها مبهم لا يعلمه إلا الله[1].

ولا يخفى أن تصدير الجملة بعنوان الربوبية فيه حسم لمادة النزاع، وقطع للجدال بتفويض الأمر لله – تعالى.

ومن وسائل تقرير المعنى وتوكيده – في هذه الجملة– التعبير بالموصول في قوله "بما لبثتم"، وما فيه من إبهام لمقدار تلك المدة التي لا يعلمها إلا الله.

وإنما جاءت هذه الجملة "ربكم أعلم بما لبثتم" مفصولة عن سابقتها للاستئناف البياني؛ لأنها جواب عن سؤال نشأ من الكلام تقديره: ماذا كان رأيهم في التحديد باليوم وبعض اليوم؟

وكذلك من تكرار المسند، وهو الفعل الماضي من اللبث في الجمل الثلاث، ومن تنوع المسند إليه، وهو الضمير المتصل بالفعل في الجمل الثلاث؛ كأن في ذلك تنبيهًا وتلويحًا إلى ما يتعلق بلبثهم في الكهف من عجائب الأمور، ومستغرب الأحوال؛ حيث لبثوا فيه مدة طويلة نيامًا، تفوق حد التخيل؛ ليكون هذا اللبث الطويل برهانًا على قدرة الله – تعالى– على الإحياء والإماتة، وعلى البعث بعد الموت.

(١) – راجع: الكشاف: ٢/ ٧١٠.

المقام الثامن

مقام بيان مقدار المدة التي لبثها أهل الكهف في كهفهم

لما كان علم مدة لبث الفتية في الكهف أدق وأخفى من علم عددهم؛ شرع النظم الكريم في إكمالها، مبينًا لهذا الأخفى، فقال تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٥– ٢٦].

تؤكد الآيتان الكريمتان على أن قدرة الله – وحده– هي التي أرقدت أصحاب الكهف ثلاثمائة سنة، ولم يوالهم غيره بتلطف لهم، ولا اشترك معه أحد في هذا الحكم.

فقوله "ولبثوا في كهفهم.." خبر من الله عن مدة لبث الفتية نيامًا في الكهف، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم، وأعثر عليهم أهل تلك القرية، وبذلك تكون الآية بيانًا لما أجمل في مطلع القصة من قوله تعالى:﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾ [الكهف: ١١].

ولعل السر من تأخير مدة لبثهم أنهم تنازعوا فيها – أيضًا– كما تنازعوا في العدد، على أن هذا البيان من الغيب الذي أخبر الله به نبيه ليكون معجزة له، وردًا مفحمًا على اليهود، وكل من سلك مسلكهم في معرفتهم الحق وكتمانه، محاولة بائسة للصد عن دين الله.

والمراد من "اللبث" – في هذا المقام– إنما هو لبثهم الأول قبل أن يبعثهم الله من رقدتهم ويتساءلوا بينهم لمعرفة ما حل بهم، وهذا ما يتلاءم مع ما سبق ذكره في قوله: "قال قائل منهم كم لبثتم..".

فاللبث – هنا– الإقامة الطويلة، وهذا ما يتناغم مع مقام المدة المديدة التي مكثها الفتية في الكهف نيامًا؛ ولذا عبر عن اللبث بصيغة الماضي – التي تفيد تحقيق الوقوع وتوكيده– فهو أمر لا ارتياب فيه، ولا جدال.

ومن بديع النظم وأسرار البيان في هذا الأسلوب أن تقديم الجار والمجرور –"في كهفهم"– على المفعول به يشير إلى أن موطن الدهشة، وموضع الاستغراب أن كان اللبث في هذا المكان البعيد الموحش الذي تنخلع له القلوب، وتضطرب له الحواس، وليس في مكان آخر، مع هذه المدة الطويلة، فقد يكون أكثر خطرًا وأشد فتكًا، إن هاجمهم حيوان مفترس، أو أفعى قاتلة.

ومما يزيد هذا المعنى وضوحًا وتمكنًا؛ التعبير بحرف الظرفية "في" الذي يدل على التمكن والاستقرار، وهذا أمر واضح فقد مكثوا تلك المدة الطويلة مضروبًا على آذانهم، لا يشعرون بشيء، ولا علاقة لهم بكل ما حولهم.

والإضافة التي في قوله "كهفهم" إضافة اختصاص، وكأن الكهف حين يذكر لا ينصرف إلا إليهم، ولا يعرف إلا بهم، وهذا تشريف لهم وإعلاء لشأنهم، فقد أخلصوا العبادة لله، وفروا بدينهم من الطغيان والعذاب، فأراد الله أن يجعلهم عبرة بينة، وآية واضحة لكل من يأتي بعدهم على طول الزمان، وتعاقب الأيام.

ومما يؤكد على أن أهل القرية هم من تنازعوا في عدد السنوات – كما تنازعوا في عدد الفتية– مجيء التذييل في قوله "قل الله أعلم بما لبثوا.."، مشابهًا لقوله – قبل ذلك– "قل ربي أعلم بعدتهم..".

وقد جاء الخبر خاليًا من التوكيد – مع تنازعهم في مدة لبثهم– إخراجًا له على خلاف مقتضى الظاهر؛ بتنزيل المنكر منزلة غير المنكر؛ للدلالة على أن هذا التنازع لا اعتداد به، ولا يلتفت إليه، ولا يقام له وزن؛ لعدم قيامه على أساس، ولا يستند إلى دليل.

ويلفت النظر حذف متعلق فعل اللبث في قوله "قل الله أعلم بما لبثوا"؛ وذلك لدلالة السياق عليه، كما أن حذفه يتناسب – أيضًا– مع مقام العلم المسند إلى الله – تعالى، فعلمه – سبحانه– علم شامل، لا يحيط به أحد، ولا يدركه عقل، ولا يتعلق بمعلوم دون آخر.

ونجد قصر الصفة على الموصوف بتقديم الجار والمجرور في قوله "له غيب السماوات والأرض" يحسم مادة النزاع حول هذه القضية، فهذا الأمر من علم الغيب الذي استأثر به الله، فهو – وحده– المختص بما غاب في السماوات والأرض، وخفي فيها من أحوال أهلها، ومن غيرها، وأنه – تعالى– هو العالم به.

ثم إنه جاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات، وهو قوله "أسمع بهم وأبصر"؛ للدلالة على أن "أمره في الإدراك خارج عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين؛ لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها، كما يدرك أكبرها حجمًا، وأكثفها جرمًا، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر"[1].

(١) – البحر المحيط: ٧/ ١٦٥.

المقام التاسع

مقام تذكير موسى – عليه السلام – بنعم الله عليه

أنعم الله على كليمه موسى – عليه السلام – بنعم عديدة، ومن ذلك رده إلى أمه، كما وعدها بلقائه كي لا تحزن على فراقه، ثم تخليصه من المحن التي وقع فيها وإنجائه منها. يقول تعالى:﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠].

فالمتأمل في مادة "لبث" يجد أنها أوفق بمقام الامتنان والتفضل والتذكير بنعم الله تعالى؛ لدلالتها على طول المدة التي قضاها موسى – عليه السلام– عند شعيب في مدين آمنًا، بعيدًا عن بطش فرعون وظلمه، بعد أن قتل القبطي، وفر بنفسه خوفًا من انتقام فرعون وملئه منه.

وبرهان هذا من عطف الجملة التي أعقبت هذه المادة بـ"ثم" – التي تفيد التراخي– وهذا يقتضي أن هناك مدة طويلة بين موعده المقدر للرسالة وبين بقائه في مدين، وكذلك من تقييد الفعل بالمفعول "سنين"، وإيثار حرف الظرفية "في" الذي يوحي بالتمكن والاستقرار في متعلق الفعل "في أهل مدين"؛ فإن هذا كله يشير إلى البقاء مدة طويلة وزمنًا مديدًا في أهل مدين.

ثم إن وقوع جملة "فلبثت سنين في أهل مدين.." عقب جملة "وفتناك فتونًا" فيه دلالة على أن لبثه في مدين "من الفتون وكذلك كان، فإنه – عليه السلام– تحمل بسبب الفقر والغربة محنًا كثيرة، واحتاج إلى أن آجر نفسه"(١).

وإسناد الفعل إلى ضمير الخطاب يستلزم الحضور – الذي يقتضي التشريف والتكريم– وهذا أدخل في التذكير، وأبلغ في الامتنان والتفضل؛ ولا غرو في ذلك، فقد شرف الله موسى بكلامه، وتلك نعمة عظيمة لم يحظ بها غيره – عليه السلام– من الأنبياء.

---

(١)– مفاتيح الغيب: ٢٢/ ٥٠.

والفاء في قوله "فلبثت" هي فاء التفريع؛ فقد عقب ذكر الفتون بالتفريع في قوله "فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى"، فبين له كيف كانت عاقبة الفتون.

وقد يكون الفتون مشتركًا بين محمود العاقبة وضده، مثل الابتلاء في قوله: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، أي: واختبرناك اختبارًا، والاختبار: تمثيل لحال تكليفه بأمر التبليغ بحال من يختبر؛ ولهذا اختير –هنا– دون الفتنة.(١)

(١)– راجع: التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٢١.

المقام العاشر

مقام امتنان فرعون وتفضله على موسى بتربيته إياه

لما بعث الله موسى إلى فرعون وقومه لدعوتهم إلى توحيد الله، والسماح لبني إسرائيل بالخروج من مصر؛ تنفيذًا لأمر الله لموسى وهارون؛ كان رد فرعون على موسى – عليه السلام– فيه نوع من الامتنان عليه والتذكير بفضله، حين ربي صغيرًا في كنف فرعون. يقول تعالى:﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨].

وقد ذكر معظم المفسرين(١) أن المدة التي مكثها موسى – عليه السلام– في بيت فرعون بلغت ثلاثين سنة، وهي مدة طويلة تتناسب مع معنى "اللبث" في الغالب.

وإنما أسند مادة "لبث" إلى الضمير العائد على موسى – وحده– دون هارون؛ للدلالة على أصالة موسى في الرسالة، فهو الذي أوحي إليه، وكلف بأداء أمانة التبليغ؛ كما قررت الآيات السابقة:﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠– ١١]، أما هارون فكان تابعًا له في الرسالة؛ لكنه كان أفصح منه لسانًا، وأقدر على الاستدلال والخطابة، فقد قيل: إن موسى كانت في لسانه حبسة إذا تكلم.

كما أن تذكير موسى بتلك النعمة هو ما يتناسب مع المقام وقرائن الأحوال، فهو الذي ربي في بيت فرعون وتكفل برعايته، وقصد فرعون من هذا الخطاب "إفحام موسى كي يتلعثم من خشية فرعون؛ حيث أوجد له سببًا يتذرع به إلى قتله، ويكون معذورًا فيه؛ حيث كفر نعمة الولاية بالتربية، واقترف جرم الجناية على الأنفس"(٢).

---

(١)– راجع: تفسير الطبري: ١٩/ ٣٣٩، والمحرر الوجيز: ٤/ ٢٢٧ ، والبحر المحيط: ٨/ ١٤٦.

(٢) – التحرير والتنوير: ١٩/ ١١٠.

ولا يخفى أن الاستفهام – الذي صدرت به الآية– استفهام تقريري، بمعنى التحقيق، وليس لطلب الاعتراف؛ بدليل أن موسى – عليه السلام– لم يعترض على هذا السؤال، وينشأ عن معنى التقرير معانٍ أخر، يوحي بها المقام، وهي: التقريع والزجر والتذكير، ففرعون – لعنه الله– يذكر موسى بنعمة الفراعنة عليه، ويعنفه ويزجره على تنكره للنعمة؛ لعله يعدل عن الطلب الذي تقدم به إلى فرعون، وهو إطلاق سراح بني إسرائيل.

فمعنى التقرير أنسب للمقام – هنا– لأنه أقوى في تذكير موسى – عليه السلام– بأمر التربية والرعاية، وهذا أمر محقق وثابت، ولا مجال فيه لشبهة أو اعتراض من موسى – عليه السلام.

فلما كان المقام مقام امتنان وتفضل ناسبه التقرير، ومجيء الحدث على صيغة الماضي "لبثت"؛ لأن الأمر محقق وثابت، كما لا يخفى.

وتقديم الجار والمجرور "فينا" يوحي بالمبالغة في التقرير بالتربية، والدلالة على اختصاصهم بتربية موسى، والمعنى: نحن أصحاب الفضل عليك دون غيرنا، باعتبار انقطاعك إلينا، وتعززك – في الظاهر– بنا، فلا يجدر بك مواجهتنا ومجابهتنا والتصدي لنا، ومخالفة أمرنا.

ولا يخفى أن الكلام قد بني على حذف مدخول حرف الجر "في"، أي: في بلدنا، أو في منازلنا، وبهذا الحذف تحققت المبالغة، وانجلى الغرض، أي: ربيناك بين جوانحنا وفي سويداوات قلوبنا، أو لعله من المجاز المرسل بعلاقة الحالية؛ حيث ذكر الحال وأراد المحل.

وفي التعبير بـ"وليدًا" – دون طفلًا– لقرب عهده بالولادة؛ وهذا أدخل في الامتنان، وأبلغ في التفضل، وآكد في التذكير بنعمة الفراعين على موسى، بتربيتهم إياه وعدم قتله، كما حدث مع بقية أطفال بني إسرائيل في هذا الوقت.

وتقييد فعل "اللبث" بالجار والمجرور "من عمرك" فيه تتميم؛ لزيادة تقرير المعنى وتأكيده، حيث لبث فيهم مدة كبيرة من الزمن؛ ولذلك لما كان استعمال هذا الفعل في الإقامة الطويلة – غالبًا– ناسبه التعبير بكلمة "سنين" وتنكيرها الذي يشير للكثرة، فقد لبث موسى فيهم سنين كثيرة، قدرها المفسرون بأنها كانت ثلاثين سنة، كما سبق.

ثم إن تكرار المتعلق "فينا" – في الآية نفسها– يوحي بزيادة المن على موسى، وتذكيره بما كان من نعمتهم عليه؛ ولذا قدم هذا المتعلق؛ لأنه موضع المن، ومناط التفضل، كما لا يخفى.

المقام الحادي عشر
مقام تكذيب المنافقين

تعلل المنافقون بإعوار بيوتهم، وتمحلوا ليفروا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين، وعن مصافة الأحزاب الذين ملؤوهم هولًا ورعبًا، وليس رجوعهم إلا بسبب كفرهم وحبهم الفتنة. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤].

وردت هذه الآية في مقام تكذيب المنافقين في ادعائهم الذهاب إلى بيوتهم لتحصينها من العدو؛ لأنها معرضة له، ممكنة للسراق، فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك، وإنما يريدون الفرار والهروب.

وصيغة "التلبث" – في هذا الموضع– تدل على الزمن القليل جدًا؛ بدليل الاستثناء الوارد عقبها: "إلا يسيرًا". يقول الزمخشري: "إلا يسيرًا ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف"(١).

فكون هذه المادة تنصرف – هنا– للمكث القليل أوفق بمقام التكذيب – أيضًا– لدلالتها على سرعة إعطاء الردة، والرجوع إلى الكفر مباشرة، ريثما يسع السؤال والجواب من الزمان، فضلًا عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها، فصح بهذا أنهم لا يقصدون إلا الفرار، لا حفظ البيوت من المضار.

ثم إن هذه الصيغة فيها نوع من القلق والاضطراب، وعدم الاستقرار والثبات، وهو ما يتناسب مع حالة القلق الكائن في قلوب هؤلاء المنافقين، وعدم مكثهم في المدينة، بخلاف صيغة "لبث" والتي ليس في بنائها هذا الأمر، ولا تتوافق مع مقتضى حالهم في هذا الهول والرعب، أو عن المدة التي يمكثونها في المدينة بعد ردتهم.

(١) – الكشاف: ٣/ ٥٢٨.

والتلبث – هنا– ليس مستعملا في حقيقة معناه، وإنما هو مستعار في الإبطاء، والمراد به: ما أبطأوا بالسعي في الفتنة، ولا خافوا أن تؤخذ بيوتهم، فلو دخلت جيوش الأحزاب المدينة، وبقي جيش المسلمين خارجها، وسأل الجيش الداخل الفريق المستأذنين أن يلقوا الفتنة في المسلمين بالتفريق والتخذيل؛ لخرجوا لذلك القصد مسرعين، ولم يثبطهم الخوف على بيوتهم أن يدخلها اللصوص أو ينهبها الجيش.(١)

وبناء الكلام على أسلوب القصر يؤكد المعنى ويصوره، ويتناسب مع مقام تكذيب المنافقين أيما مناسبة؛ حيث قصر لبث هؤلاء المدعين بالبقاء في المدينة على مدة يسيرة، وزمن محدود.

وقد يكون الغرض من الاستثناء في قوله "إلا يسيرًا" التهكم؛ تأكيدًا للنفي بصورة الاستثناء، ويؤيد هذا المعنى سياق النظم الكريم بعده في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ [الأحزاب: ١٥].

كما تؤيده قرينة الحال الماثلة فيما ورد من أن بني سلمة مع بني حارثة كانتا الطائفتين اللتين همتا بالفشل يوم أحد، ثم تابا وعاهدا على أن لا يقع منهم فرار، فوقع يوم الخندق من بني حارثة هذا الاستئذان.(٢)

على أن العبارة قد بنيت على حذف الموصوف، وتقدير الكلام: "وما تلبثوا بها إلا زمنًا يسيرًا"، ولا يخفى أن هذا الحذف يتناغم مع المقام ويعضده؛ حيث يصور حال هؤلاء المنافقين، وخبث طويتهم، وكيف سيطيرون للفتنة والحرب على محمد ﷺ ويأتونها محبين.

(١) – راجع : التحرير والتنوير: ٢١/ ٢٨٨.
(٢)– راجع: المحرر الوجيز: ٤/ ٤٧٣.

والمتأمل في جملة "وما تلبثوا بها إلا يسيرًا" يجد أنها في نفس مضمون جملة "ثم سئلوا الفتنة لأتوها"، فتكون مقررة ومؤكدة لمضمون الجملة السابقة عليها من باب التذييل غير الجاري مجرى المثل؛ لأن المعنى لا يفهم إلا بارتباطه بالكلام السابق عليه.

المقام الثاني عشر

مقام نفي علم الغيب عن الجن

تجسد هذا المقام في كتاب الله – تعالى– في آية واحدة، جاءت في ظلال قصة سليمان – عليه السلام– من سورة سبأ، وهى قوله سبحانه:﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

فهذه الآية تبطل – إبطالًا قاطعًا– دعوى الشياطين علم الغيب؛ فرؤساؤهم وكبارهم كانوا يدعون علم الغيب لأتباعهم من الجن والإنس ويوهمونهم بذلك.

وفعل "اللبث" – هنا– يتناغم مع المقام؛ لدلالته – في هذا الموضع– على المدة الطويلة، وهذا يتوافق مع مقتضى حال الجن بعدم العلم بموت سليمان – عليه السلام– فقد ظل ميتًا عامًا كاملًا، كما ذكر المفسرون(١)، ولم يتبين الجن أمر موته حتى خرَّ على الأرض؛ حيث أكلت الأرضة تلك العصا التي كان يتكىء عليها.

ولا يخفى أن إسناد الفعل إلى واو الجماعة فيه تأكيد – من وجه آخر– على عدم علم الجن الغيب؛ لأنه يدل على تساويهم جميعا في هذا الأمر؛ ولذا يقول الزمخشري: "علم الجن كلهم علمًا بينًا– بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم وتوهمهم– أن كبارهم يصدقون في ادعائهم علم الغيب، أو علم المدعون علم الغيب منهم عجزهم، وأنهم لا يعلمون الغيب وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم"(٢).

(١) – راجع: تفسير الطبري: ٢٠/ ٣٧١، والكشاف: ٣/ ٥٧٤، والبحر المحيط: ٨/ ٥٢٤.
(٢) – الكشاف: ٣/ ٥٧٣ وما بعدها.

على أن خلو جواب "لو" من اللام "ما لبثوا في العذاب المهين" ربما يكون فيه دلالة على أن عدم علم الجن الغيب أمر ظاهر معلوم، لا يخفى على أحد، ولا يحتاج إلى تأكيد – وهذا على خلاف ما يعتقده معظم الناس– فلعله من تنزيل المنكر منزلة غير المنكر؛ للدلالة على أن إنكاره لا يعتد به، ولا يلتفت إليه؛ لقيام الدليل الظاهر على خلافه.

فبناء الكلام على هذه الصياغة أراد الله – تعالى– به أن يقرر حقيقة عدم علم الجن الغيب من خلال هذه القصة، فقد ظل سليمان – عليه السلام– ميتًا عامًا كاملًا، يمرون عليه المرة بعد الأخرى، دون أن يتبينوا خبر موته، مع شدة العذاب الواقع عليهم "ما لبثوا في العذاب المهين"، وهذا أدعى – لو علموا الغيب– أن يتخلصوا من هذا العذاب.

وفي إيثار فعل اللبث منفيًا بـ"ما" في جواب "لو"، وتقييده بالجار والمجرور "في العذاب المهين"، ووصف العذاب بـ" المهين"؛ إيحاء بأن المؤمنين من الجن لم يكونوا في هذا التسخير؛ لأن المؤمن لا يكون في زمن النبي في العذاب المهين.(١)

وجاءت جملة "فلما خر تبينت الجن.." تذييلًا مقررًا ومؤكدًا لمضمون الجملة التي قبلها "فلما قضينا عليه الموت.."؛ فهي في معناها، والتذييل – هنا– لا يجري مجرى المثل؛ لأنه لا يفهم معناه إلا من خلال الكلام المتقدم عليه.

والتعبير بمادة "خرَّ" – والتي تشير للسقوط بقوة، سقوطًا يسمع منه خرير– يشي إلى أنه كان سقوطًا مفاجئًا، وهذا ما يؤازر – أيضًا– تأكيد المقام، وهو عدم علم الجن الغيب.

(١) – راجع: مفاتيح الغيب: ٢٥/ ٢٠٠.

والمتأمل في الفعل "تبين" يجد أنه يجوز حمله على معنى العلم، وحينئذ تكون جملة "أن لو كانوا يعلمون الغيب.." سادة مسد مفعولي الفعل "تبين"، كما أنه يجوز حمله على معنى الظهور، ويكون المعنى: "فلما خر ظهرت الجن أن لو كانوا.."، وتكون جملة "أن لو كانوا يعلمون الغيب.." في موقع البدل من الجملة السابقة.

ولعل هذا المعنى هو الأقوى لما فيه – أولًا– من زيادة تقرير المعنى وتوكيده؛ لأن جملتي البدل والمبدل منه بمثابة عرض للمعنى في صورتين، وإبرازه في معرضين، يقرر كل واحد منهما الآخر، أما التأويل الأول فيكون جملة واحدة، والتأكيد بإعادة الجملة أقوى من التقرير بالمفعول، كما لا يخفى.

وفيه لطيفة أخرى، وهو أنه أقوى من جهة كونه الأوفق بمقام نفي علم الغيب عن الجن؛ لدلالته على ظهور الأمر ووضوحه، وأنه لم يعد خافيًا على أحد، ففيه افتضاح لهؤلاء المدعين، وتمحيص لإفكهم وتخرصهم.

المحور الثاني: مقام التعبير بمادة "لبث" في سياق الحديث عن البعث وأهواله

وكما وقعت مادة "لبث" في سياق الحديث عن القصص القرآني جاءت هذه المادة – أيضًا– في سياق الحديث عن البعث وأهواله في آيات متنوعة، وفي مقامات مختلفة، بلغت سبعة مقامات، وسوف يعرض البحث لها بالدراسة والتحليل في هذا المحور؛ لعله يكشف عن شيء من خبيء أسرارها ومكنون دررها.

المقام الأول

مقام تصوير بعض أهوال القيامة وشدائدها

برز هذا المقام في مواضع ثلاثة من الذكر الحكيم، تصور أهوال القيامة وشدائدها، وما تفعله في العقول من ذهول وحيرة.

وكان أول هذه المواضع تلك الآية من سورة يونس التي تذكر الناس بقيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة، وتبرز حال الذين خسروا أنفسهم وأهليهم. يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

والمقصود من قوله "كأن لم يلبثوا" استقلال وقت لبثهم في القبور، أو في الدنيا واستقصاره؛ لهول ما يرون من شدائد وكربات وأهوال، فهي الخسارة العظيمة، ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

وصياغة الفعل من مادة "اللبث" على وزن المضارع – في هذا المقام– من وضع المستقبل موضع الماضي؛ لاستحضار مدة لبثهم في الدنيا، أو في القبور، وهذا أعظم في تصوير خسارتهم، وأبلغ في الدلالة على استقصارهم مدة لبثهم.

كما أن صيغة المضارع هي التي تتلاءم مع سائر عناصر السياق الأخرى التي خرجت مخرج الاستقبال؛ بدليل أن الحديث – هنا– حديث عن الحشر وأهواله، والحشر لما يقع بعد.

على أن التعبير بالظرف "يوم" – الذي هو معمول لفعل مضمر محذوف تقديره: "واذكر يوم"– دلالته على الاستقبال ظاهرة؛ لأنه معمول لما هو أصل في الدلالة على الاستقبال "فعل الأمر"، ويؤيد ذلك ويدعمه – أيضًا– التعبير بالفعل المضارع "نحشرهم".

ومن ثم كان التعبير بالفعل من "اللبث" مضارعًا؛ فهو ما يتناسق مع سياق الاستقبال الذي اكتنفه من بين يديه ومن خلفه.

ولتأكيد استقصار مدة لبثهم في الدنيا؛ خرجت الجملة مخرج القصر بطريق النفي والاستثناء، وهو ما لا يأتي إلا في المعنى الذي يحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد. يقول عبد القاهر: "وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: "ما هذا إلا كذا"، و "إن هو إلا كذا"، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه. فإذا قلت: "ما هو إلا مصيب" أو: "ما هو إلا مخطئ"، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلت"[1].

وإنما جاء المقصور عليه كلمة "ساعة" للتأكيد على قصر المدة واستقرابها، فهذه الكلمة تعني الجزء من الزمان، سواءً أكان طويلًا أم قصيرًا، ولكنه للقصر أغلب؛ فإن الساعة يضرب بها المثل في قلة المدة.

وللتأكيد على هذا المعنى وقعت الجملة في موضع الحال، وخرجت مخرج التشبيه؛ لأن الأصل: يحشرهم تشبه حالهم حال من لم يلبث إلا ساعة من النهار.

(١) – دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني: ٣٣٢، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ– ١٩٩٢م.

ووجه الشبه – بين حال زمن لبثهم في القبور وبين حال لبثهم ساعة من النهار– هو التحقق والحصول، بحيث لم يمنعهم طول الزمن من الحشر، وأنهم حشروا بصفاتهم التي عاشوا عليها في الدنيا، فكأنهم لم يفنوا، وهذا اعتبار بعظيم قدرة الله على إرجاعهم.(١)

فالتشبيه بيان لحالهم في تذكرهم للدنيا، يعني أن هذه الحياة الدنيا – التي غرتهم بمتاعها الحقير الزائل– قصيرة ستزول بعذابهم أو موتهم، وسيقدرون يوم القيامة قصرها بساعة من النهار، لا تسع أكثر من التعارف القليل.(٢)

وتشير الجملة – أيضًا– إلى التعريض بإبطال دعوى المشركين إحالتهم البعث، بشبهة أن طول اللبث وتغير الأجساد ينافي إحياءها.

وتخصيص النهار بالذكر؛ لتحقيق قلة مدة لبثهم؛ إذ ساعات النهار وقسمه معروفة بينة للجميع؛ فالنهار هو الزمن الذي تستحضره الأذهان في المتعارف.

على أنه ليس المقصود من التعارف – في هذا السياق– التعارف بالمعنى المشهور، الذي يقصد من ورائه الإيناس والطمأنينة، وإنما هو تعارف على جهة الخزي والتلاوم من بعضهم لبعض، على ما فرطوا في حق أنفسهم، وما آل إليه حالهم.

وتقديم الظرف "يوم" على عامله للاهتمام؛ لأن المقصود الأهم تذكيرهم بذلك اليوم، وإثبات وقوعه، مع تحذيرهم ووعيدهم بما يحصل لهم فيه؛ ولذلك عدل عن الإضمار إلى الموصولية في قوله: "قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله" دون قد خسروا؛ للإيماء إلى أن سبب خسرانهم هو تكذيبهم بلقاء الله، وذلك التكذيب من آثار الشرك فارتبط بالجملة الأولى، وهي جملة: "ويوم

(١) - راجع: التحرير والتنوير: ١١/ ١٨٢.
(٢) - راجع: تفسير المنار: ١١/ ٣١٧.

نحشرهم جميعًا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم.." إلى قوله: "وضل عنهم ما كانوا يفترون".[1]

ويؤكد معنى استقصار مدة اللبث؛ مجيء جملة "قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله.." عقب جملة التشبيه، فحالهم هذه هي الخسارة التي ليس معها تجارة.

وقد تكون جملة "ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة.." تأكيدًا لجملة "قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله.."، وذلك على اعتبار أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، على ما ذهب إليه بعض المفسرين[2] من أن الظرف "يوم" منصوب بالفعل "خسر"، مقدم عليه.

ويكون ارتباط الكلام على هذا النحو: "وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون وقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله يوم نحشرهم..".

وجاء الموضع الثاني – من مواضع هذا المقام– في تلك الآيات التي تصور حال المجرمين، وكيف أنهم يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا، فيتأسفون عليها، ويصفونها بالقصر؛ لما عاينوا من الشدائد والأهوال، وعلموا أنهم استحقوها على إضاعتها في اتباع الشهوات وقضاء الأوطار. يقول تعالى:﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ **[طه: ١٠٢– ١٠٤].**

وأول ما يسترعي الانتباه ويجذب الأفهام أن "اللبث" – هنا– جاء على أصله المراد منه؛ حيث عبر به عن المدة القصيرة أو الطويلة "يومًا" و"عشرًا"، ولما كان هذا الحدث محققًا وثابتًا، قد انقضى زمانه، وانتهى أوانه؛ كانت صياغته على وزن الماضي.

(١) - التحرير والتنوير: ١١/ ١٨١.

(٢) - راجع: السابق نفسه والصفحة نفسها.

وإخراج الجملتين مخرج القصر: "إن لبثتم إلا عشرًا"، و"إن لبثتم إلا يومًا"؛ فيه أمارة بينة وحجة دامغة على شدة ما عاينوه من أهوال القيامة وشدائدها؛ فهول المطلع، وشدة ذهاب أذهانهم، قد عزب عنهم قدر المدة التي لبثوها في دار الدنيا، أو في البرزخ.

ولما كان المعنى يحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد؛ جاء القصر بطريق النفي والاستثناء، فالنبرة عالية، والنغمة حاسمة، والتعبير شديد، فوصف ما لبثوا فيه بالقصر؛ لأنها لِمَا يعاينون من الشدائد كانت لهم في الدنيا أيام سرور، وأيام السرور قصار، أو لذهابها عنهم وتقضيها، والذاهب – وإن طالت مدته– قصير بالانتهاء، أو لاستطالتهم الآخرة وأنها أبد سرمدٌ يُستقصر إليها عمر الدنيا(١)، فناسب ذلك كله أسلوب النفي والاستثناء.

والنفي بـ"إن" – دون "ما"– يتناسب مع المقام ويتلاءم مع مقتضيات الأحوال؛ فهذا الحرف فيه خفة عند النطق به تتناسب مع استقصارهم مدة بقائهم في الدنيا، بخلاف "ما" التي فيها امتداد في النفس، وثقل في النطق، لا يتواءم مع تصوير تلك المدة التي زعموا أنهم لبثوها في الدنيا "عشرًا" أو "يومًا".

ثم إن التعبير بـ"عشرًا" أو "يومًا" فيه كناية عن شدة ما يعتريهم من الذهول والطيش، فإنهم حين يشاهدون البعث – الذي كانوا ينكرونه في الدنيا، ويعدونه من قبيل المحالات– لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك اعترافًا به، وتحقيقًا لسرعة وقوعه، كأنهم قالوا: قد بعثتم وما لبثتم في القبر، أو في الدنيا إلا مدة يسيرة، وإلا فحالهم أفظع من أن تمكنهم من الاشتغال بتذكر أيام النعمة والسرور، واستقصارها، والتأسف عليها(٢)، ولا يخفى ما في ذلك من دلالة على شدة الأسف والندم والخيبة والحسرة.

(١)– راجع: البحر المحيط: ٧/ ٣٨٢ وما بعدها.

(٢)– راجع: تفسير أبي السعود: ٦/ ٤١ وما بعدها.

ونسبة من قال "يومًا" بأنه أعدل طريقة؛ لكونه أعظم في التنديم، أو لكونه أدل على شدة الهول ونهاية الرعب، وهذا يدل على كون قائله أعلم بفظاعة الأمر وشدة العذاب.

وتنكير "يومًا" للتقليل والتحقير، فالمراد: إلا زمنًا قليلًا، وهذا أبلغ في الدلالة على هول الموقف وأدخل في تصوير شدة ندمهم، وفرط حسرتهم وتأسفهم.

وإنما عبر بلفظ "يتخافتون" لما يملأ صدورهم من شدة الهول وعظيم الرعب، وفي اختيار هذه اللفظة ملمح آخر، وهو أنهم لما صاروا بسبب الخوف في نهاية الضعف، فلا يطيقون الجهر؛ إذ الخفت: خفض الصوت وإخفاؤه، يقال: خفت يخفت وخافت مخافتة والتخافت: السرار، وهو نظير قوله تعالى:﴿فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ [طه: ١٠٨].

ويدل القيد "بينهم" على أن الخوف طبع لازم لهم، وعامل مستشرٍ بينهم، غير مختص بفئة دون فئة، وهذا ما يؤكد على شدة الموقف وبالغ عظمته.

على أن جملة "إن لبثتم إلا عشرًا" جاءت مفصولة مبينة للتخافت؛ فالكلام فيه إبهام – أولًا– ثم كان إيضاحه على طريقة شبه كمال الاتصال، أو على كمال الاتصال لوقوعها بمنزلة عطف البيان، وهذا نوع من تصوير شدة أسفهم وندمهم، وحسرتهم على ما فرطوا من أعمالهم وأعمارهم في الدنيا.

وانتظم الموضع الثالث لهذا المقام في تلك الآية وما تقرره، حين يرى الكفار الساعة، فيستقصرون مدة لبثهم في القبور، أو في الدنيا؛ لما عاينوا من الهول. يقول تعالى:﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

فهذا المقام يتضمن ردًا بليغًا على سؤالهم السابق في قوله تعالى: "يسألونك عن الساعة أيان مرساها"، سواء أكان السؤال من قبلهم علي سبيل الاستبطاء أو الاستهزاء.

وبناء العبارة على هذا النحو يتضمن تقريبًا واستقصارًا لمدة لبثهم في الدنيا، وهذا أوفق بمقام الإنذار، وأبلغ في معنى الوعيد؛ لدلالته على حقارة الدنيا واستصغار شأنها، وأنها بمقدار عشية أو ضحاها.

والجملة فيها تقرير وتوكيد لما ينبئ عنه الإنذار من سرعة مجيء المنذر به؛ وكأن المعنى: كأنهم لم يلبثوا – بعد الإنذار بها– إلا عشية يوم واحد أو ضحاها.

كما أن فيها – أيضًا– ردًا بليغًا لما أدمجوه في سؤالهم السابق: "يسألونك عن الساعة.."، فإنهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء مستعجلين، وإن كان على طريق الاستهزاء بها، ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين.

ويكون المعنى حينئذ: كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا – بعد الوعيد، تحقيقًا للإنذار وردًا للوعيد– إلا عشية أو ضحاها.[1]

على أن خروج الجملة مخرج القصر زاد المعنى تقريرًا وتأكيدًا؛ لتقريب مدة لبثهم واستقصارها.

كما أن التعبير بطريق النفي والاستثناء – هنا– يتناغم مع حال المخاطبين؛ لأنهم منكرون لمجيء الساعة أشد الإنكار، فخوطبوا عن طريق الأبلغ الآكد، كما لا يخفى.

والجملة خرجت مخرج التشبيه المركب؛ حيث شبهت حالهم – في الهول والذهول مما عاينوه وشاهدوه– بحال من لم يلبث إلا عشية أو ضحاها.

(١) - راجع: تفسير أبي السعود: ٩/ ١٠٦.

ولا يخفى أن هذه الصورة التشبيهية تدور في فلك الغرض العام الذي سيقت لأجله الآيات؛ إذ الغرض المقصود – هنا– هو تقريب معنى المشبه من المتعارف.

وإنما عطف "أو ضحاها" على قوله "عشية" لما فيه من المبالغة في تقليل المدة؛ لأن وقت الضحى – لا شك– أقصر من وقت العشي.

وفي تقديم "العشي" وتأخير "الضحى" – مع أن "الضحى" أسبق؛ إذ لا تقع عشية إلا بعد مرور الضحى– لرعاية الفواصل، كما ذكر صاحب التحرير والتنوير.(١)

ويلمح من التقديم غرض آخر، وهو أن الكلام خرج مخرج الترقي من الأعلى إلى الأدنى؛ حيث بدأ بما هو أطول في المدة "وهو العشي"، ثم ثنى بما هو أقل فيها "وهو الضحى"؛ وذلك للمبالغة في تأكيد قصر مدة بقائهم في الدنيا وتقريره.

(١)– راجع: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٩٩.

المقام الثاني

مقام تصوير انقياد الناس للداعي يوم القيامة

يأمر الله – تعالى– الناس بالخروج من باطن الأرض إلى ظاهرها، فيقومون كلهم إجابة لأمره، وطاعة لإرادته. يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

والتعبير بقوله "وتظنون إن لبثتم إلا قليلا" ينبئ عن شدة احتقارهم مدة بقائهم في الدنيا، حين عاينوا الآخرة وما فيها من شدائد وأهوال، تطير اللب، وتذهب العقل، حتى إنهم يظنون – حين يقومون من قبورهم– أنهم ما مكثوا في دار الدنيا إلا زمنًا قليلًا ومدة يسيرة.

والخطاب – إن كان مقصودًا منه الكفار– فيه نوع من التبكيت والتوبيخ على إنكارهم البعث، وإعراضهم عن منهج الله، وتكذيبهم رسله، وما أنذروهم به.

فإيثار التعبير بالاستجابة – عقب نداء الداعي مباشرة– وعطفها بـ"الفاء"؛ يشير إلى أنه يوم يبعثهم ينبعثون مطاوعين منقادين، لا يمتنعون ولا يمهلون.

ويأتي قوله "بحمده" ليؤكد ذلك ويقويه، فهذا القيد حال منهم؛ أي: حامدين، وهي مبالغة في انقيادهم للبعث، كقولك – لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويتمنع: ستركبه وأنت حامد شاكر، يعنى: أنك ستنتهي إلى حالة تحمد الله وتشكره على أن اكتفي منك بذلك العمل، وهذا يذكر في معرض التهديد.(١)

فالكلام فيه تصوير لسرعة الإحياء والإحضار، وسرعة الانبعاث والحضور للحساب؛ بحيث يحصل ذلك كحصول استماع الدعوة واستجابتها.

ولا يخفى أن التعبير بقوله "وتظنون إن لبثتم إلا قليلًا" فيه كناية عن استقصارهم مدة بقائهم في الدنيا، أو كناية عن استقصارهم مدة ما بين النفختين؛ لأنه يزال عنهم العذاب في ذلك الوقت، والدليل عليه قوله تعالى:

---

(١) – راجع: الكشاف: ٢/ ٦٧٢.

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]، فظنهم بأن هذا لبث قليل عائد إلى لبثهم فيما بين النفختين.(١)

وسواء أكان الخطاب للكافر أم للمسلم، فكل الناس يستقصرون مدة بقائهم في دار الدنيا؛ حيث جاء في حديث ابن عمر الذي أخرجه الطبراني، قال: قال رسول الله ﷺ: "ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، ولا منشرهم، وكأني أنظر إلى أهل لا إله إلا الله، وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن"(٢).

على أن الغرض من جملة "وتظنون إن لبثتم إلا قليلًا" قد يكون التعجيب من هذه الحالة، وهذا التعجيب تنديم للمشركين وتأييد للمؤمنين. والمراد هنا: أنهم ظنوا ظنًا خاطئًا، وهو محل التعجيب. وأما قوله في الآية الأخرى:﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٤]، فمعناه: أنه وإن طال، فهو قليل بالنسبة لأيام الله.(٣)

والجملة خرجت مخرج القصر الذي طريقه النفي والاستثناء، قصر صفة على موصوف؛ لذهولهم عن زمان لبثهم في القبور أو لاستقصارهم الدنيا بالنسبة إلى الآخرة.

وقد يكون القصر إضافيًا "قصر قلب"، بالنسبة لاعتقادهم أن دار الدنيا هي الحياة وحدها، وأن الفناء بعدها فناء دائم، فلا إعادة ولا حساب، فقلب عليهم اعتقادهم، وخاطبهم بطريق القصر بالنفي والاستثناء؛ ردًا لاعتقادهم السابق.

---

(١) – راجع: مفاتيح الغيب: ٢٠/ ٣٥٤.

(٢) - المعجم الأوسط لأبي القاسم الطبراني: ٩/ ١٨١، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين– القاهرة، (د.ت).

(٣) – راجع: التحرير والتنوير: ١٥/ ١٣٠.

المقام الثالث

مقام تحسير الكافرين وتنديمهم

يستقصر منكرو البعث مدة لبثهم – بالنسبة إلى ما تحققوه من طول زمان خلودهم في النار– ولو كانوا يعلمون قلة لبثهم في الدنيا – بالنسبة للآخرة– ما اغتروا بها وعصوا. يقول تعالى:﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢– ١١٤].

والمقصود من الفعل الماضي – الذي أعقب أداة الاستفهام مباشرة– المدة الطويلة؛ بدلالة قوله "عدد سنين" الذي هو تمييز لـ"كم" الاستفهامية.

والسؤال – هنا– سؤال تبكيت وتوبيخ؛ لأنهم كانوا ينكرون البعث ولا يعدون اللبث إلا في الدنيا، ويظنون أن بعد الموت يدوم الفناء، ولا إعادة مرة أخرى.

وهذا السؤال فيه كناية عن ثبوت خروجهم من الأرض أحياءً، وهو ما كانوا ينكرونه، وكناية عن خطأ استدلالهم على بطلان البعث باستحالة رجوع الحياة إلى عظام ورفات. وهي حالة لا تقتضي مدة قرن واحد، فكيف يكون حالهم، وقد أعيدت إليهم الحياة، بعد أن ظلوا قرونًا كثيرة، فإن ذلك أدل على سعة القدرة الإلهية، وأدخل في إبطال شبهتهم؛ إذ قد تبين بطلانها فيما هو أكثر، مما قدروه من علة استحالة عود الحياة إليهم.(١)

كما أن مجيء السؤال – في هذا المقام– يشي – أيضًا– بتحسيرهم وتنديمهم على ما كانوا يعتقدون في الدنيا من أنه ليس هناك آخرة ولا بعث ولا حساب، وليس السؤال سؤالا حقيقيًا.(٢)

---

(١) – راجع: التحرير والتنوير: ١٨/ ١٣٢.

(٢)– راجع: مفاتيح الغيب: ٢٣/ ٢٩٨.

ويدل على زيادة تحسيرهم وتنديمهم تقديم الجار والمجرور "في الأرض" على التمييز "عدد سنين".

وقد يكون الغرض من التقديم – هنا– العناية بالمقدم والتوفر على الاهتمام به؛ لأنه مكان اللبث وموضعه، فما ظنوه دائمًا طويلًا فهو يسير، بالإضافة إلى ما أنكروه، ولا يخفى ما في هذا التقديم من رعاية الفاصلة – أيضًا.

ثم إن الاستفهام – عن سنوات المكث في الأرض– فيه تنبيه لهم على خطئهم؛ إذ كانوا يزعمون أنهم إذا دفنوا في الأرض لا يخرجون منها.

ولا يخفى أن التمييز – هنا– هو كلمة "سنين"، وإنما أضيف لفظ "عدد إليه" تأكيدًا لمضمون "كم"؛ لأن "كم" اسم استفهام عن العدد، فذكر لفظ "عدد" معها تأكيد لبعض مدلولها.

على أن جواب هؤلاء المنكرين "لبثنا يومًا أو بعض يوم" جاء على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأنهم سئلوا عن عدد السنين التي مكثوها، فكانت إجابتهم ببيان عدد الأيام، وهذا ما يسمى بلاغة بالأسلوب الحكيم.

ولعل الغرض من ذلك تصغير مدة لبثهم في الأرض وتحقيرها، مقارنة بما وقعوا فيه وعاينوه وعرفوه من العذاب الأليم.

ثم إن هذا الجواب ينبئ عن شدة أسفهم، وغاية تحسرهم، وفرط ذهولهم وطيشهم؛ بسبب ما هم فيه من العذاب، ودليل ذلك ما ذكره ابن عباس – رضي الله عنه– من "أنه أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين"[(١)]، سواء أكانوا في الدنيا أم كانوا في القبر.

وعطف قوله "أو بعض يوم" على ما سبقه يعضد المعنى السابق ويقويه، وهو شدة الأسف، وغاية الحسرة، وفرط الذهول والطيش؛ مما واقعوه ووجدوه، وقد حسبوا ذلك غير محقق ولا واقع.

---

(١) – السابق نفسه والصفحة نفسها.

والتنكير في قوله "يومًا" يفيد التحقير والتقليل؛ بدليل عطف قوله "أو بعض يوم" عليه، فقد قدروا مدة مكثهم في باطن الأرض بنحو يوم من الأيام المعهودة لديهم في الدنيا، كما دل عليه قوله تعالى:﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].

فجواب هؤلاء المنكرين "لبثنا يومًا أو بعض يوم" ينبئ عن أن الإنسان ابن اللحظة التي يعيش فيها، فإن كانت شديدة الوطء، صعبة المراس؛ فإنه لا يرى غيرها، بل وينسى ما مر عليه من أيام السعادة والهناءة ويستقصرها، وكذلك الأمر بالعكس، فلو كانت لحظة فرح وسرور؛ فإنه لا يرى غيرها، ويستقصر ما مر عليه من أيام الوصب والنصب.

ودليل ذلك ما رواه الإمام مسلم عن أنس بن مالك– ﷺ– قال: قال رسول الله ﷺ: "يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا، من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله يا رب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط"(١).

والتفريع الذي أتبعوه جوابهم "فاسأل العادين" فيه دليل – أيضًا– على المعنى السابق، فهو اعتراف بأنهم لم يضبطوا مدة مكثهم، فأحالوا على من يضبط ذلك، وهم المتمكنون من العد، البارعون فيه، فإنهم – بما دُهموا من العذاب– بمعزل من ذلك.

(١) – صحيح مسلم: ٤/ ٢١٦٢، باب: صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، رقم الحديث: ٢٨٠٧، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي– بيروت، (د.ت).

وأما قراءة "العاديّين" – بتشديد الياء جمع عاديّ، نسبة إلى قوم عاد– والمراد بهم: المعمرون؛ لأن قوم عاد كانوا يعمرون كثيرًا، أي: فاسأل القدماء المعمرين، فإنهم – أيضًا– يستقصرون مدة لبثهم، فكيف بمن دونهم![1]

ويأتي أسلوب القصر في قوله "إن لبثتم إلا قليلًا" لتصديقهم في مقالهم؛ زيادة في تحسيرهم وتنديمهم وتبكيتهم وتوبيخهم. يقول الرازي: "فكأنه قيل لهم صدقتم ما لبثتم فيها إلا قليلًا، إلا أنها انقضت ومضت، فظهر أن الغرض من هذا السؤال تعريف قلة أيام الدنيا في مقابلة أيام الآخرة"[2].

ولا يخفى أن القصر بحرف النفي "إن"، دون "ما" – في هذه الجملة– وما فيها من خفة؛ يتناسب مع استقصار هؤلاء المنكرين مدة مكثهم في الدنيا – أو في القبر– وأنها كانت مدة قليلة، وأن الآخرة هي دار البقاء الدائم.

(١)– راجع: روح المعاني: ٩/ ٢٦٨.
(٢) – مفاتيح الغيب: ٢٣/ ٢٩٩.

المقام الرابع

مقام تصوير حال المجرمين حين تقوم الساعة

يستقل المجرمون مدة لبثهم في الدنيا لما عاينوا من أمر الآخرة، ويقسمون على ذلك لجاجًا منهم وتسورًا على ما لا علم لهم به. يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].

فجملة "ما لبثوا غير ساعة" فيها استقصار لمدة لبثهم في الدنيا، أو في القبور، أو بين النفختين: فناء الدنيا إلى البعث، وأنهم ما لبثوا غير زمن يسير جدًا، كما قرره معظم المفسرين.(١)

فهذه الجملة وافية بتصوير حال المجرمين في هذا الوقت، وكافية في الدلالة على شدة الذهول؛ بسبب هول الموقف وصعوبته.

وقد يشير قوله "يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة" إلى تصوير اغترارهم ومكابرتهم عن الإذعان للحق وقبوله، مع ما عاينوه من أهوال عميمة، وأمور عظيمة، ودليل ذلك ما ختمت به الآية من قوله "كذلك كانوا يؤفكون"، أي: مثل ذلك الصرف الذي يصرفونه الآن كانوا يصرفون عن الحق إلى الباطل في الدنيا، وعن الصدق إلى الكذب.(٢)

على أنه إن حملنا العبارة على استقصارهم مدة لبثهم في الدنيا، يكون فيها معنى الاعتذار؛ بسبب التقصير وعدم التمكن من العمل الصالح؛ لانقضاء الوقت سريعًا، ومرور الزمن مرورًا خاطفًا، حسب زعمهم وادعائهم، وأن الساعة وقعت بغتة وبديهة، فعاجلتهم ولم تمهلهم.

---

(١) - راجع: تفسير الطبري: ٢٠/ ١١٨، والكشاف: ٣/ ٤٨٦، والبحر المحيط: ٨/ ٤٠٢، وتفسير أبي السعود: ٧/ ٦٦.

(٢) – راجع: مفاتيح الغيب: ٢٥/ ١١٢.

والقسم فيه نوع واضح من تأكيد الكلام، كما لا يخفى، ثم يأتي التعبير بالفعل المضارع الذي يشير إلى تجدد قسمهم مرة بعد مرة، وهذا أبلغ في الدلالة على مدى اغترارهم ومكابرتهم عن الحق، أو عن مدى استقصارهم للمدة التي لبثوها في الدنيا، أو في القبور، وكأنهم مقتنعون بما يقسمون عليه اقتناعًا شديدًا، لا حيدة عنه، ولا زحزحة.

فالمتأمل في هذه الجملة يجد أن التأكيد قد جاء من القسم، ومن القصر بالنفي والاستثناء – في قوله "ما لبثوا غير ساعة"– الذي وقع في جواب القسم.

وإنما أوثر الاستثناء بالأداة "غير" – دون أخواتها– للإشارة إلى المغايرة التامة، والبون الشاسع بين الحالين: الحال التي صاروا إليها في هذا الموقف العصيب، وما يلاقونه من أهوال وشدائد، والحال التي كانوا عليها في الدنيا من ترف وبذخ وصد عن الحق.

وإسناد فعل "اللبث" إلى ضمير جماعة المجرمين؛ فيه دلالة على صدورهم جميعًا عن هذا الرأي، وتواردهم عليه، وفيه تصوير – أيضًا– لمدى رضاهم عنه، وقناعتهم به.

ثم إن التنكير في كلمة "ساعة" يشي بمعاني التقليل والتحقير من شأن المدة التي لبثها هؤلاء المجرمون في الدنيا، ويقابله التعريف في كلمة "الساعة"، وما فيه من تفخيم وتعظيم وتهويل من شأن المسند إليه، كما يشير إلى ذلك سياق الكلام.

ويبرز في هذا التركيب – أيضًا– ذلك الجناس التام بين الاسمين: "الساعة" و"ساعة"، ومعلوم أن المعاني إن أرسلت على سجيتها لتكتسي من الألفاظ ما يزينها، يكون ذلك أدعى لميل النفس، وأملك لزمام السمع.(١)

(١) – راجع: المنهاج الواضح للبلاغة لحامد عوني: ١/ ١٧٩، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الأولى، (د.ت).

وجملة "كذلك كانوا يؤفكون" استئناف بياني؛ لأن غرابة حالهم – من فساد تقدير المدة والقسم عليه، مع كونه توهمًا– يثير سؤال سائل عن مثار هذا الوهم في نفوسهم، فكان قوله "كذلك كانوا يؤفكون" بيانًا لذلك. ومعناه: أنه لا عجب في صدور ذلك منهم، فإنهم كانوا يجيئون بمثل تلك الأوهام مدة كونهم في الدنيا، فتصرفهم أوهامهم عن اليقين، وكانوا يقسمون على عقائدهم استخفافًا بالأيمان، وإشارة – أيضًا– إلى انصرافهم عن الحق يوم البعث.(١)

(١) – راجع: التحرير والتنوير: ٢١/ ١٢٩ وما بعدها.

المقام الخامس

مقام إبطال دعوى المشركين وردها

وأعقب الآية السابقة قوله تعالى:﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦]، والمقام – هنا– مقام رد وإبطال لدعوى المشركين السابقة.

وجاء الرد – في قوله "لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث.."– مؤكدًا بالقسم الموطأ له بـ"اللام"، والتعبير بـ"قد" الداخلة على الفعل الماضي؛ مضاهاة ومشاكلة لعبارة المشركين في الجملة السابقة؛ ليكون الرد على وفق ادعاء المجرمين السابق ولفقه، وعلى شاكلته – أيضًا– من حيث القوة والتأكيد.

والمتأمل في قوله: "لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث.." يجد أن فيه نوعًا من التوبيخ والتبكيت والتهكم؛ بدليل قوله تعالى: "ولكنكم كنتم لا تعلمون"، فأسلوب الاستدراك يؤكد معنى التهكم في قول الذين أوتوا العلم والإيمان على رد هؤلاء المجرمين المكذبين.

كما لا يخلو هذا الرد من التيئيس والتحزين والترويع لهؤلاء المجرمين، وأنه لا خلاص لهم مما هم فيه من شدائد وأهوال.

المقام السادس

مقام تثبيت النبي ﷺ وتصبيره

يأمر الله – تعالى– نبيه ﷺ بالصبر وترك الاستعجال؛ لأن العذاب الذي وُعد به هؤلاء المكذبون قريب منهم، وأنه نازل بهم لا محالة. يقول تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فجملة "كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار" كأنها تعليل للأمر بالصبر والنهي عن الاستعجال.

وإتباع الأمر والنهي بما يشبه العلة فيهما؛ أبلغ في التقرير والتأكيد؛ لأن العلة تقوم مقام الدليل والبرهان على صحة الحكم – سواء أكان أمرًا أم نهيًا– وهذا يجعله مستساغًا ومقبولًا في العقل والمنطق.

وزاد من تقرير المعنى وتوكيده خروج الكلام مخرج التشبيه المقصود منه تقريب المشبه؛ حيث شبه حالهم – حين يرون ما يوعدون من العذاب– بحال من لم يلبث في الدينا – أو في القبر– إلا ساعة من نهار.

وإنما بنيت الصورة التشبيهية على أداة التشبيه "كأن" – دون غيرها– للتأكيد على شدة الشبه وقوته بين حالة هؤلاء المكذبين، وحالة من لم يلبث إلا ساعة من نهار، فهذه الأداة لا تستعمل إلا حين يقوى الشبه بين الطرفين، حتى يكاد الرائي أو السامع يشك في أن المشبه هو المشبه به أو غيره، كما ذكر الإمام عبد القاهر[1].

ومما أسهم في إبراز المعنى وتجليته؛ مجيء الكلام مبنيًا على القصر بطريق النفي والاستثناء، الذي لا يكون إلا في المعنى الذي يحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه.

---

(١)– دلائل الإعجاز: ٢٦٨.

ثم إن تنكير كلمة "ساعة" – في هذا المقام– يفيد التقليل والتحقير؛ بدليل قوله في عقبها "من نهار"، وأما تنكير كلمة "نهار" فيشي بمعنى الإبهام؛ لقصد العموم والشمول، فالمراد: ساعة من أي نهار، وليس نهارًا بعينه، وفي التنكير نوع من التحقير – أيضًا، وكل هذا يقوي الغرض العام الذي يدور في فلكه الأسلوب، وهو التثبيت والإرشاد.

والجملة فيها نوع من الوعيد لهم؛ بدليل قوله – تعالى– بعد ذلك: "بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون"، وهذا الوعيد تدعيم لموقف النبي صلى الله عليه وسلم وزيادة تثبيت له؛ لدلالته على قوة موقفه، وشدة ركنه الذي يأوي إليه.

وبناء الفعل لغير الفاعل – في جملة "يوعدون"– فيه نوع من المبالغة في التهديد والوعيد؛ لدلالته على أن إهلاكهم جد يسير عليه – تعالى؛ فلعل المكذبين يرتدعون ويعملون عقولهم، قبل أن يندموا، ولات ساعة مندم.

المقام السابع

مقام تهديد الطغاة ووعيدهم

كانت جهنم في حكم الله – تعالى– وقضائه موضع رصد، يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها، لا يشذ منهم أحد، ثم إنهم يلبثون فيها دهورًا متتابعة، كلما مضى حقب تبعه حقب آخر إلى غير نهاية. يقول تعالى:﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبـــــأ: ٢١–٢٣].

وهذا هو الموضع الوحيد الذي جاءت فيه مادة "لبث" بصيغة الاسم، وما عداه وردت فيه بصيغة الفعل ماضيًا كان أو مضارعًا؛ وذلك على النحو الذي سبق تفصيله وتحليله قبل ذلك في صفحات البحث.

وإيثار التعبير بصيغة الاسم "لابثين" فيه دلالة على الثبوت والدوام والاستقرار، وهذا يتناغم مع المقام الذي سيقت الآية لأجله.

كما أن هذه الصيغة تشير إلى التيئيس والتقنيط لهؤلاء الطغاة المكذبين من الخروج من النار، وهذا ما يقتضيه مقام تهديدهم ووعيدهم؛ فلعلهم يرتدعون ويرعوون؛ حتى لا تنكشف برق مناهم عن سحاب خلب.

ومما يؤكد هذا المعنى ويدعمه أن كلمة "لابثين" قد عديت بحرف الظرفية "في" الذي يدل على الاستقرار والتمكن، فهؤلاء الطغاة لا يموتون في جهنم، ولا يظعنون عنها، يتجرعون فيها صنوفًا شتى من العذاب، وألوانًا متنوعة من العقاب، جزاءً على وفق ما سبق به التقدير، وجرى به الحكم.

وقرأ الجمهور(١): "لابثين" – على صيغة جمع "لابث"، وقرأ حمزة وروح عن يعقوب: "لِبِثِين" – على صيغة جمع "لِبِث"– من أمثلة المبالغة، مثل: حذِر وفرِق – على خلاف فيه– أو من الصفة المشبهة، فتقتضي أن

(١) - حجة القراءات لأبي زرعة ابن زنجلة: ٧٤٥، تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الرسالة- بيروت، الطبعة الأولى، (د.ت).

اللبث شأنه كالذي يجثم في مكان لا ينفك عنه. يقال: هو لبث بمكان كذا: أي قد صار اللبث شأنه، فشبه بما هو خلقة في الإنسان؛ لأن باب فعِل إنما هو لما يكون خلقة في الشيء في الأغلب، وليس كذلك اسم الفاعل من لابث.

فهذه الكلمة تشي بالبقاء الطويل والمكوث الممتد؛ بدلالة كلمة "أحقابًا" – التي عدي عليها اسم الفاعل– لأن الأحقاب ما كان من الزمن لا نهاية له، والمقصود بها: دهورًا متتابعة، يتبع بعضها بعضًا، فهي أحقاب لا تنقطع، كلما مضى حقب جاء حقب.(١)

وإنما آثر الأحقاب؛ لأن الحقب أبعد شيء عندهم، فتكلم بما تذهب إليه أوهامهم ويعرفونها، وهي كناية عن التأبيد، أي يمكثون فيها أبدًا. وقيل: ذكر الأحقاب دون الأيام، لأن الأحقاب أهول في القلوب، وأدل على الخلود. ولا يكاد يستعمل الحقب إلا حيث يراد تتابع الأزمنة(٢)، والمعنى متقارب.

وصيغة القلة لا تنافي عدم التناهي؛ إذ لا فرق بين تتابع الأحقاب الكثيرة إلى ما لا يتناهى، وتتابع الأحقاب القليلة كذلك. وقيل: إن الصيغة – هنا– مشتركة بين القلة والكثرة؛ إذ ليس للحقب جمع كثرة، فليرد بها – بمعونة المقام– جمع الكثرة، وتعقب بثبوت جمع الكثرة له، وهو الحقب.(٣)

وقد بنيت العبارة على حذف المضاف إليه؛ إذ إن أصل الكلام: "أحقاب الآخرة التي لا نهاية لها"، فحذف "الآخرة" لدلالة الكلام عليه، فالكلام فيه ذكر الآخرة، وهو كما يقال: أيام الآخرة، أي: أيام بعد أيام إلى غير نهاية، وإنما كان يدل على التوقيت لو قال: خمسة أحقاب أو عشرة أحقاب. ونحوه.(٤)

---

(١) – راجع: مفاتيح الغيب: ٣١/ ١٦، وتفسير القرطبي: ١٩/ ١٧٩.

(٢) – ومن ذلك قول أبي تمام:

لقد أخذت من دار ماوية الحقب أنحل المغاني لليلى أم هي نهب

(٣) – راجع: روح المعاني: ١٥/ ٢١٥.

(٤) – راجع: تفسير القرطبي: ١٩/ ١٧٨.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الماتعة والمسيرة الوارفة في ظلال مقامات مادة "لبث" في سياق النظم القرآني؛ أستطيع أن أرصد بعض ما اهتدت إليه الدراسة من نتائج، وذلك على النحو الآتي:

١- تنوع دلالات مادة "لبث" في القرآن الكريم؛ تبعًا لاختلاف المقامات والأغراض وسياقات الأحوال؛ حيث تطلق ويراد بها البقاء في المكان زمانا قليلًا أو كثيرًا، وقد تشي بالأمرين معا في وقت واحد، ومثال ذلك تناغمها مع حال فتية أهل الكهف في سؤالهم عن مدة إقامتهم في الكهف؛ ليعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيزدادوا يقينًا، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرمهم به.

٢- برز دوران هذه المادة بروزا لافتًا في سياق القصص القرآني، وفي سياق الحديث عن البعث وأهواله؛ حيث يستقصر المجرمون مدة لبثهم في الدنيا، فيتأسفون عليها، ويصفونها بالقصر؛ لما عاينوا من الشدائد والأهوال والكرب العظام.

٣- وردت هذه المادة في مقام تسلية النبي ﷺ وتثبيته بذكر ما ابتلي به الأنبياء قبله من أقوامهم، وما كابدوه من طول المصابرة، وحينئذٍ يكون إيثار مادة "لبث" أوفق بهذا المقام، وأدخل في باب التسلية والتسرية عن الرسول ﷺ وأقوى في باب الربط والشد على قلبه ﷺ؛ لدلالته على طول المدة التي لبثها الأنبياء في أقوامهم: يدعونهم إلى الله، ونبذ عبادة الأوثان.

٤- يعقب السؤال عن مدة اللبث – أحيانًا- جملة فيها نهي عن التنازع أو التخاصم في مدته، كما في قوله تعالى: "ربكم أعلم بما لبثتم.."، وقوله أيضا: "الله أعلم بما لبثوا.."، ففي هذه الجمل – وأمثالها– توجيه للأذهان، ولفت للأفهام إلى صرف العناية والاهتمام إلى ما هو أهم بالنسبة لهم جميعًا.

٥- يحذف تمييز "كم" الاستفهامية مع الفعل الماضي "لبث" – في الغالب- للإشارة إلى لهفة السائل، وفرط تعجله، وحرصه على معرفة مدة اللبث؛ لعله يجد ضالته، فيشفي غلته، ويسكن جأشه، وقد يكون السؤال لغير ذلك.

٦- وردت هذه المادة بصيغة الماضي في خمسة عشر مقامًا، ووردت بصيغة المضارع في أربعة مقامات، ولم ترد بصيغة الاسم إلا في مقام واحد؛ ولعل السر في ذلك أن هذه المادة كانت تأتي في سياق مقاولات ومحاورات ضمن القصص القرآني، والحديث مع منكري البعث، ولما كانت هذه الأحداث محققة الوقوع وثابتة، أو كالمحققة؛ كانت صياغتها على وزن الماضي ألصق بهذه السياقات؛ لدلالة صيغة الماضي على تحقق الوقوع وحصوله.

٧- صيغة الماضي التي تزيَّت بها تلك المادة هي "لبث"، ولم ترد بصيغة "تلبثوا" إلا في موضع واحد في سورة الأحزاب، وتبين أن هذه الصيغة هي الأوفق بمقام التكذيب؛ لدلالتها على الترقب والانتظار، ريثما يسع السؤال والجواب من الزمان، فضلًا عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها، فصح بهذا أن هؤلاء المنافقين لا يقصدون إلا الفرار، لا حفظ البيوت من المضار.

ثم إن هذه الصيغة فيها نوع من القلق والاضطراب، وعدم الاستقرار والثبات، وهو ما يتناسب مع حالة القلق الكائن في قلوب هؤلاء المنافقين، وعدم مكثهم في المدينة، بخلاف صيغة "لبث" والتي ليس في بنائها هذا الأمر، ولا تتناسب مع مقتضى حالهم في هذا الهول والرعب، أو عن المدة التي يمكثونها في المدينة بعد ردتهم.

٨- جاءت هذه الصيغة في تركيب جملة القصر بالنفي والاستثناء كثيرًا، لتناسقها مع سياق الحديث الذي جاء في خطاب منكري البعث غالبًا، وتلك سياقات تقتضي تأكيدًا زائدًا؛ وهو ما يجعل طريق القصر بالنفي والاستثناء أكثر مواءمة لها، فالنبرة عالية، والنغمة حاسمة، والتعبير شديد، فوصف ما لبثوا فيه بالقصر، لأن أيام السرور قصار، والذاهب - وإن طالت مدته- قصير بالانتهاء.

٩- كانت أداة النفي "إن" هي الأكثر استعمالًا في جملة القصر التي جاءت مادة "لبث" في صياغتها- دون "ما"- وهو ما يتطابق مع مقتضى حال المنكرين للبعث ويتلاءم مع نفسياتهم؛ فهذا الحرف فيه خفة عند النطق به تتناسب مع استقصارهم مدة بقائهم في الدنيا، بخلاف "ما" التي فيها امتداد في النفس، وثقل في النطق لا يتواءم مع تصوير تلك المدة التي زعموا أنهم لبثوها في الدنيا.

١٠- يتعدى فعل "اللبث" بحرف الجر "في" – غالبا؛ مما يدل على التمكن والاستقرار، وهذا أوفق بالمقامات الوارد فيها، وآكد في المراد بهذا الفعل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أهم المصادر والمراجع

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي– بيروت، الطبعة الأولى، (د.ت).
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل لأبي سعيد البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي– بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
- البحر المحيط في التفسير لأبي الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر– بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، الطبعة الأولى ١٩٨٤هـ.
- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة– القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٣٢هـ– ٢٠١١م.
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) لأبي البركات النسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية– القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ– ١٩٦٤م.
- جمهرة اللغة لابن دريد، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين– بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي لشهاب الدين الخفاجي، دار صادر- بيروت، الطبعة الأولى، (د.ت).
- حجة القراءات لأبي زرعة ابن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الرسالة- بيروت، الطبعة الأولى، (د.ت).
- الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي، تحقيق: بدر الدين قهوجي- بشير جويجاتي، راجعه ودققه: عبد العزيز رباح - أحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث - دمشق/ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- خصائص التراكيب- دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة- القاهرة، الطبعة السابعة، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٩م.
- دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الأولى، (د.ت).
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، لشرف الدين الطيبي، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي: د. جميل بني عطا، المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.
- فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.
- القاموس المحيط للفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لجار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر- بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.
- المبسوط في القراءات العشر لأبي بكر النيسابوريّ، تحقيق: سبيع حمزة حاكمي، الناشر: مجمع اللغة العربية- دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨١م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
- المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- المعجم الأوسط لأبي القاسم الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة، (د.ت).

- معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر- بيروت، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
- مفاتيح الغيب= التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي- بيروت الطبعة الثالثة- ١٤٢٠هـ.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية- دمشق/ بيروت، الطبعة الأولى- ١٤١٢هـ.
- المنهاج الواضح للبلاغة لحامد عوني، المكتبة الأزهرية للتراث- القاهرة، الطبعة الأولى، (د.ت).

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٧١٤٥
٢	التمهيد: دلالات مادة "لبث" في المعاجم العربية	٧١٤٨
٣	المحور الأول: مقامات التعبير بمادة "لبث" في سياق	٧١٥٠
٤	مقام معاينة إحياء الموتى واستعظام قدرة المحي	٧١٥٠
٥	مقام الرد على المكذبين المنكرين أن القرآن من عند الله	٧١٥٧
٦	مقام تصوير إكرام إبراهيم – عليه السلام- لضيفانه	٧١٦٢
٧	مقام تعيين مدة لبث يوسف – عليه السلام- في السجن	٧١٦٥
٨	مقام تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتسليته	٧١٦٨
٩	مقام بيان أي الحزبين المتنازعين في مدة لبث أصحاب	٧١٧٣
١٠	مقام تصوير تنازع أصحاب الكهف في مدة لبثهم	٧١٧٥
١١	مقام بيان مقدار المدة التي لبثها أهل الكهف في كهفهم	٧١٧٨
١٢	مقام تذكير موسى – عليه السلام- بنعم الله عليه	٧١٨١
١٣	مقام امتنان فرعون وتفضله على موسى بتربيته إياه	٧١٨٣
١٤	مقام تكذيب المنافقين	٧١٨٦
١٥	مقام نفي علم الغيب عن الجن	٧١٨٩
١٦	المحور الثاني: مقام التعبير بمادة "لبث" في سياق	٧١٩٢
١٧	مقام تصوير بعض أهوال القيامة وشدائدها	٧١٩٢
١٨	مقام تصوير انقياد الناس للداعي يوم القيامة	٧٢٠٠
١٩	مقام تحسير الكافرين وتنديمهم	٧٢٠٢
٢٠	مقام تصوير حال المجرمين حين تقوم الساعة	٧٢٠٦
٢١	مقام إبطال دعوى المشركين وردها	٧٢٠٩
٢٢	مقام تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتصبيره	٧٢١٠
٢٣	مقام تهديد الطغاة ووعيدهم	٧٢١٢
٢٤	الخاتمة	٧٢١٤

٢٥	فهرس المصادر والمراجع	٧٢١٧
٢٦	فهرس الموضوعات	٧٢٢١